

إبداعات
جديدة

٦

الزُّوق

أحمد زكريا الأمير





رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة إبداعات جديدة

اسم الكتاب: الزوق
اسم المؤلف: أحمد زكريا الأمير
رقم الإيداع: ٣٩٧٤ / ٢٠١٥
تدمك: ٢ - ٨١٧٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨
مقاس الكتاب: ١٣,٥ × ١٩,٥ سم
عدد الصفحات: ١٨٤ صفحة
القاهرة: الطبعة الأولى ٢٠١٥

١/٢٠١٣/١٨٨

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ في مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

إلى جدى.. هذا ما أقدر أن أهديه إليك.. علمتني دون أن أراك
كثيرا.. إن الإنسان بلا قلب ذكرى إنسان

obeikan.com

شخصيات القصة

حسن بن عبد الله العطار... حسن الزوق.... الراوى
محمود العطار... أخو حسن.. شيخ أزهرى
إبراهيم العطار... أخو حسن و صاحب البلاء
رقية ابنة منصور بك... زوجة حسن الزوق
فتحية... أم حسن الزوق وإخوته
مالك... عم حسن الزوق
منصور بك الدفتردار.. حما حسن وأبو رقية
شويكار هانم الكبرى... زوجة منصور بك الأولى تركية
زينب... زوجة منصور بك الثانية.. مصرية.. وأم رقية
شويكار هانم الصغرى... أخت رقية الكبيرة
شويكار... ابنة حسن الزوق الكبرى
فيروز... ابنة حسن الزوق الوسطى
فطيمة.. ابنة حسن الزوق الصغرى
إبراهيم الصغير.. ابن حسن الزوق مات صغيرا
صفية... زوجة مالك
ياسمين... ابنة مالك وزوجة محمود العطار
الجددة.. اسمها ياسمين.. أم عبد الله ومالك.. وجددة حسن
شاكر.. صديق حسن.. حداد
حسونة.. ابن مالك المدلل.. وأخو ياسمين

عبد الله.. زوج شويكار ابنة حسن
على... زوج فيروز ابنة حسن
إبراهيم القماش.. زوج فطيمة ابنة حسن
على بك الانكشارى.. زوج شويكار هانم الصغرى
الراهب سمعان.. صديق عبد الله أبو حسن
الشيخ مسعود.. شيخ حسن وأستاذه فى الأزهر
الشيخ عبد الغفار القاضى.. أستاذ إبراهيم العطار..

* * *

(١)

تركت البيت هرباً من نظرات أمى الحزينة التى أجدها مدفونة فى عينها كلما نظرت إلى.. تشعرنى بالبؤس فيضيق صدرى.. وكأنها أشعلت النار فى أنفاسى عن غير قصد.. أعلم أنها لا تريد أن تجرح مشاعرى.. فقد طال مكوثى فى البيت.. فمنذ تخرجى فى الجامعة وأنا أبحث عن وظيفة كأى شاب مصرى فى عصرنا الحالى.. لكن دون جدوى.. حقيقة الأمر أنى مللت من كل شىء.. وأحداث البلاد فى تلك الفترة.. لا تشجع على أى شىء.. فمنذ نشوب الثورة المصرية واندلاع أحداثها.. التى شاركت فيها على نحو اندفاعى وجنونى.. أدركت بعدها أن الحلم أبعد مما أعتقد.. على الرغم بإيمانى الشديد بالوصول على أية حال ومهما طال الزمان.. ولكن آثرت أن ألجأ لهواية قديمة فى البحث عن الآثار وخاصة الإسلامية فى العصور التى بالكاد يعرف جيلى أسماءها.. فكان ملاذى أن أجلس بين تلك الآثار.. وأتساءل كيف عاش أهل مصر فى تلك العصور السابقة.. وآخذ فى يدي بعضاً من كتب التاريخ التى أعشق قراءتها حتى لا تكاد يدي تفرغ منها.. أعيش بين صفحات التاريخ العربى.. حياة أخرى بعيدة عن تلك الواقعة التى كادت توذى بى إلى الجنون.. فمن يحيا فى التاريخ يدرك أن الوصول ليس مستحيلاً.. وفى يوم قرأت فى الجريدة أحد التحقيقات الصحفية عن رجل عاش فى عصر من العصور الإسلامية لا نعرف عنه الكثير أو من أى أصل من الأصول هو؟ وكيف وصل إلى القاهرة؟.. له مقام عند

باب الفتوح مدفون فيه وكتب عليه «مقام العارف بالله سيدي حسن الزوق».. أعجبتني قصة الرجل على الرغم من أن المعلومات عنه معروفة لدى القليل من أهل مصر في عصرنا الحالى.. قررت من فوري أن أقوم برحلة لمقام هذا الرجل.. حيث أبحث فيه عن روح المكان.. وأنسم عبق التاريخ فى تلك المنطقة الشعبية من القاهرة القديمة.. ربما أجد فيها شيئاً يلهينى...

جلست تلك الليلة ساهرا أبحث عن هذا الرجل وقصته التى طمرها التاريخ.. وأبحث بين صفحات المقرئى عن هذا الرجل المدفون فى منطقة غريبة.. فالمعروف منذ الفتح الإسلامى أن أهل مصر يدفنون موتاهم بالقرافة عند سفح المقطم أو ما يعرف بالقرافة الكبرى والصغرى.. لم يَدفن هذا الرجل فى موقع التفرد هذا عند باب الفتوح؟! لم لا يكون عند باب النصر مثلا أو زويلة؟!.. شىء جاب فى ذهنى ربما عاش هذا الرجل فى العهد الفاطمى الشيعى.. خاصة أن القبر مدهون باللون الأخضر هكذا يبدو فى الصور على الإنترنت.. ليس لدى ما يثبت ذلك.. فقلت فى نفسى ربما عاش فى العصر المملوكى.. حين اتسمت مصر بالعشوائية.. لا أعلم حتى الآن عن هذا الرجل أكثر من أنه كان طيبا تقيا يحبه الناس ويلجأون إليه فى شدتهم.. وأعرف أصل المقولة الشعبية التى مازالت على ألسنة المصريين إلى اليوم.. حينما يتعارك الناس فيما بينهم «الزوق مخرجش من مصر».. نعم لم يخرج من مصر هذا الرجل بل مات على أعتابها كمدا.. لما لاقاه من أهلها من جهل وفقر وصراعات لا تنتهى أبدا.. حقيقة الأمر تثيرنى تلك الشخصية.. خاصة فى عصر

تلاشت فيه القيم.. وأصبح الدين مجرد لحية وشاكلة.. ولسان حال يكذب الهيئـة.. أحب التاريخ.. أو أحب أن ألجأ إليه فأجد ما أفتقده فى حياتى.. وبالرغم من إيمانى بمقولة الفيلسوف فولتير «ما نتعلمه من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ».. بيد أننى أحاول جاهدا أن أسبح ضد هذه الفكرة و لو على المستوى الشخصى.. أحيانا يأخذنى الفكر بعيدا فى زمن آخر فى عالم آخر قديم.. فأعرف طعم العزة والنصر.. الفرح والحزن.. الضيق والفرج.. هكذا يحيا أكثر شباب مصر الآن حياة افتراضية.. لا تخلو من الخيال.. فلقد أصبح الواقع كابوسا والحلم فيه صعب المنال..

فى الصباح الباكر خرجت من فورى إلى باب الفتوح.. أحد أبواب القاهرة المعزية القديمة.. ذكرت بعض من كتب التاريخ أن هذا الباب سـمى بهذا الاسم ليخرج منه الجند للمعارك فتكون بشرى بالفتح والنصر.. لذلك فى رحلة العودة يدخلون من باب النصر.. أما باب زويلة فسمى بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة وهى قبيلة من المغاربة جاءت إلى القاهرة المعزية مع جواهر الصقلى عبد المعز الفاطمى.. أعرف عن بداية القاهرة ونشأتها وتسميتها.. فقد شغلنى الأمر لفترة من الزمن فبحثت عنه كثيرا وسألت عنه الكثير.. بنيت القاهرة المعزية لتكون حصنا مانعا جديدا بين الجيزة والفسطاط القديمة.. وتعددت حواريتها (لفظ حارة أطلق على الحى السكنى فى تلك الفترة).. سميت كل حارة باسم أهلها من الجند ممن أتوا فى جيش المعز إلى مصر.. حارة زويلة.. حارة الروم.. حارة كتامة (نسبة إلى قبيلة من المغرب).. حارة البرقية (نسبة إلى برقة)..

حارة الأتراك (في الجهة المقابلة للجامع الأزهر).. حارة اليانسة (نسبة إلى صقلية ممن أتوا مع جوهر الصقلي).. هكذا تسمت حارات القاهرة المعزية.. وبدأت تُرسمُ أحيائها (حاراتها) بحيث تكون عاصمة جديدة لدولة جديدة.. في نفس الوقت أراد المعز الفاطمي أن يحمي نفسه ودولته من خطر القرامطة الذين أصبح قتالهم حتمياً.. وأيضاً من خطر المصريين أنفسهم من أهل السنة الذين كرهوا بدع الشيعة وسبائهم.. لذلك أحيطت القاهرة بسور محصن بنى في أول أمره بالطوب اللبن ثم تبدل إلى تلك الهيئة التي هو عليها الآن.. أما عن التسمية فقد ذكر المقريزي عدة روايات أكثرها تعقلاً أن جوهر الصقلي سماها في بدايتها المنصورية حتى جاء المعز إلى مصر فغيرها إلى القاهرة لتكون القاهرة لبني العباس (الدولة العباسية).. ولكني قرأت في كتاب للدكتور يوسف زيدان وقد ذكر أن تلك المنطقة الفارغة بين الفسطاط والجيزة كان اسمها (كاهيرا) أو (كاهى رع) بالنطق المصرى الفرعونى.. على كل حال هكذا أصبح اسمها...

وصلت إلى باب الفتوح.. تعجبت كثيراً مما رأيته من العامة غير عابئين بهذا الأثر العظيم.. ولا تلك النقوش والبنية الرائعة.. بل وجدت حماراً ربطه صاحبه إلى أحد الأركان وتركه يأكل في برسيم أخضر.. وآخر ركن سيارته إلى جوار الباب.. شعرت بضيق شديد فى صدرى.. لكنى التمسيت العذر لهم فى نهاية الأمر..

ها هو الضريح.. سبع عتبات لتصل إليه نازلاً.. قد دهن باللون الأخضر.. وحمداً لله تم تجديده.. فصوره على الإنترنت مزرية.. أخذت

أجوب المكان وأتلمس عبق التاريخ.. أنظر إلى المعمار وأتذكر أنى كنت مهندسا فى يوم ما.. تفحصت المكان بعناية ودقة شديدة أنستنى همى.. أنظر إلى مقام هذا الرجل الذى خلد اسمه إلى يومنا هذا.. وأتساءل كيف كان يبدو هذا التقى؟.. هل كان يربى لحية شعثناء ويرتدى الجلباب الصينى القصير.. هل كان يمشى ممسكا مسبحة فى يديه.. أم كان يحرمها.. هل كان يملك سيارة مرسيدس ويعيش فى قصر.. أم كان رجلا بسيطا.. ما تلك التساؤلات؟.. هل فقدت عقلى؟.. ربما.. لا أستبعد ذلك على أية حال.. تمنيت من كل قلبى لو رأيت هذا الرجل..

جاء وقت الرحيل.. انتهت الرحلة كما كان يقول أستاذ المدرسة فى نهاية رحلاتنا المدرسية التى لم تتعد حديقة الحيوان بالجيزة «فينش يا ولاد».. فلدى الآن ما أقوم به.. عندى وقفة احتجاجية أمام نقابة المهندسين ربما يشعر بنا أحد.. قال لى أحد أساتذتى فى الجامعة.. إذا أردت أن تعرف قيمة دولة ما بين الأمم.. فانظر إلى حال مهندسيها.. أضحك كلما أذكر تلك الكلمات فحالنا مزر إلى درجة الذروة.. التى تنقطع فيها الكهرباء دوما فى عصر الإخوان..

بينما أهم فى الذهاب إذ برجل يتبعنى.. من هذا الرجل؟.. أحقا يتبعنى؟.. لم أنم ليلة البارحة جيدا.. هل هذاااااا... ولكن هذا الرجل لا يبدو عليه أنه مخبر.. اعتدت المراقبة حتى صارت جزءاً من شكوكى.. نظرت إلى ورائى فإذا به مازال يتبعنى.. على أن أستدعى احترافى فى تشتيت المخبرين.. أقحمت نفسى فى زحام الناس.. وبدأت أدخل الشوارع المتفرعة.. أسرع من خطاى و لا أنظر خلفى حتى لا يشك

أنى كشفت مراقبته.. هل هذا ما تغير فى بلادى بعد الثورة أسلوب المراقبة!!.. ها هو أتوبيس رمسيس.. لن يستطيع اللحاق بى.. حشرت نفسى فى زحام الأتوبيس بين سارقيه و متحرشيه ثم إلى المترو.. حتى ينتهى هذا الشك الباقي بالمراقبة.. وصلت أخيرا إلى نقابة المهندسين ٣٠ شارع رمسيس.. نزلت من الأتوبيس فوجدت الرجل أمامى.. ورأيتة عن مقربة للمرة الأولى..

رجل تبدو عليه الهيبة يكسو وجهه الوقار.. أبيض اللون بحمرة شامية.. عيناه عسليتان حزينتان.. تملأ وجهه التجاعيد.. يظهر عليه أن عمره فى العقد السادس أو السابع من العمر.. بالرغم من هذه السن الطاعنة فإن الحيوية ظاهرة عليه والنشاط.. يميل جسده للامتلاء.. جبهته العريضة يظهر فيها علامات الصلاح.. لحيته بيضاء قد تدلت كسلاسل الفضة.. ناعمة منظمة.. لكن رداءه الذى يرتديه غير اعتيادى على نظرى.. هو قريب إلى حد ما من اللباس الأزهرى بعمامته الشهيرة.. ولكن لا.. ليس هو.. فقبطانه من الصوف غالب على مظهره أنه صنع باليد.. أو أنه قديم الطراز إلى حد لا أعرفه.. أشبه بالطراز المملوكى القديم..

نظراته إلى تحيرنى.. ورؤيته عن مقربة زادت من حيرتى.. واحتمال أنه مخبر أصبح مدعاة للضحك.. لو ارتدى المخبرون هذا الزى لانتهى ما بقى فى خزانة الدولة من نقود.. اطمأن قلبى إلى حد بعيد.. جعلنى آخذ أنفاسى التى كادت تنقطع وانخفضت نسبة الأدرينالين الذى كاد يفتك بى.. قررت أن أهمله و لا أبادره بالحديث حتى يفصح عما

يريده.. دخلت وسط عشرات الزملاء ممن احتشدوا أمام النقابة.. وقررت أن أكون بينهم حتى لا يرانى..

ما إن دخلت بينهم حتى وجدت صديقى العزيز محمود حسين بينهم يتحدث معهم.. بحماس شديد وبرودة غير معهودة عليه.. فمحمود إخوانى متعصب إلى درجة عمياء.. أذكر أنه تشاجر مع أحد دكاترة الكلية حتى كاد يضره بسبب دعاية ألقاها بين يدي المحاضرة عن الإخوان.. لم يقصد الرجل سوءا ولكن هكذا تصير الأمور مع محمود دائما.. على الرغم من معرفتى بانتمائه ومعرفته بانتمائى الناصرى فإن زمالة الجامعة تُصير الأمور على غير هذا الخلاف الأيديولوجى..

سلمت على محمود وقاطعت حديثه فلم أره منذ ثلاث سنوات.. ثم استطرد الحديث فكان يقول إن النقابة غير مسئولة عما يواجهه المهندسون فى حياتهم من ضيق.. وهذا ما ينافى ما كان يقوله حتى آخر يوم رأيت فيه فى الجامعة.. فى البداية لم أرد أن أخرجهم أمام الزملاء.. ولكنه تمادى حتى وصل لأسطوانته المعهودة بأستاذية العالم والخلافة.. كان لا بد لى أن أوقفه.. فقلت:

– إن كنت تدعو للخلافة فعليك أن تدعو للخليفة أولا.. هل تعرف خليفة يصلح للخلافة من آل البيت الآن.. أو من قريش حتى؟!!

نظر إلى بدهشة وقال:

– لا ولكن...

قلت مقاطعا:

– أنا

– أنت؟؟؟!!

– نعم أنا.. أنا قرشى ومن آل البيت..

كانت تلك هي المرة الأولى التي أخبر فيها أحدا عن هذا السر الذى نحرص أن نكتمه عن الناس فنريح ونستريح.. أدهش الأمر صديقى محمود إلى حد بعيد حتى أعجزه الأمر عن الكلام.. كذلك كان حال الحضور من الزملاء أمام النقابة.. أكملت حديثى فى وسط هذا الصمت العارم..

– إن كنت تدعو بالخلافة.. فسأطالب بحقى فيها.. التاريخ لا يفرغ من الأدعياء..

ابتسم محمود ظنا منه أننى أمزح كعادتى وقال:

وتكون أول خليفة ناصرى فى التاريخ الإنسانى..

ضحكت وقلت فى نفسى كم يصبح الأمر مدعاة للسخرية.. وجدت أن الأمر قد بعد تماما عما جننا من أجله.. إننا نطالب بحقنا كمهندسين لا أكثر ولكنى لم أكن البادى فى الشطط.. ولكن كانت تلك حيلة ذكية من محمود حسين حتى يضيع أصل الأمر ويفرغ محتوى الموضوع.. لم أكن الوحيد المدرك لهذه الحيلة ولكن كثيرا من الزملاء والزميلات.. فنحن الآن فى مجتمع لا يصلح معه هذا النوع من اللعب.. ولا أيضا الرشوة الرخيصة تمنعهم من الفهم.. فإدراك الحقائق شىء تعلمناه لسنوات فى الجامعة.. فهو أصل التفكير العلمى...

قال أحد الحضور مقاطعا الضحك والهسهسات وصوت السيارات المارة:

لقد بعدنا عن الأمر.. ومن الواضح أن الأخ إخوانى يناصر القائمين على

النقابة الآن.. إن لم تكن النقابة هى صوت أهلها فما عساها أن تكون؟!!

ثم أخذ في الهتاف ونردد خلفه بحماسة.. وانتهى الأمر فى آخر اليوم كعادته بلا جدوى.. ورجع كل منا بخفى حينين..

رجعت إلى البيت متعبا.. لآخذ قسطا طويلا من الراحة تنتهى بصوت أمى توقظنى.. قد أذن للمغرب.. قم من نومك هذا.. ألا تفعل شيئا غير النوم؟!.. عادة لا أرد على هذا التعليق.. ولكن هذه المرة خرجت عن لسانى كلمات غلبتنى أو لعلى لم أفق.. فقلت:

- وهل وجدت شيئا أصنعه وتقاعت؟

نظرت إلى أمى بنظرة حنونة وكأنها تعتذر عن قولتها.. وقالت بصوت رقيق:

- تهون إن شاء الله يا بنى.. سيأتى قريبا الفرج..

فى الحقيقة لم تكن تلك الكلمات تخرق مسامعى للمرة الأولى.. ولكن اعتادت قولها كما اعتدت سماعها منها منذ كنت طفلا.. حتى إنى أحيانا أمل منها..

قمت من فراشى إلى المرحاض.. صليت المغرب لأعاود جلستى على جهاز الكمبيوتر.. الذى أجلس أمامه طيلة اليوم.. لا لأنى مثل بقية الشباب.. أتصف بعدم المسؤولية.. ولكن هربا من جلد نظرات أبى إلى حينما أجلس بينهم أشاهد التلفاز.. فهى نظرات مختلطة ما بين الحنو والإشفاق واللوم أحيانا.. فألجأ إلى عالمى الافتراضى الذى أعيش فيه بعيدا عن كل ما أكره.. خصوصا تلك العروض التى تمطرنى من إخوانى.. فيقترح كل منهم اقتراحا لا يخلو من استغلالى.. فأخى الكبير يريد أن يفتح مطعمًا ليحسن دخله ويريدنى أن أكون مشرفا عليه.. برغم

أنسى على يقين أنه لا يملك من المال ما يجعله يشتري بذلة جديدة..
ولكن هكذا يبدأ وابل الاقتراحات الذى لا ينتهى إلا بأن أقوم وأعود
لعزلتى كالرهبان..

انقضت ساعات طويلة أمام الجهاز (الكمبيوتر) لا يقطعها إلا الضرورة
بالخروج من الغرفة.. وها هو يؤذن الفجر.. أقوم إلى المسجد لأصلى
الفجر وأجتمع بمن بقى من أصحاب أمام المسجد وقد يتطور الأمر
فيكون هناك جولة فى شوارع الحى الذى أسكنه.. ولا تنتهى حتى
يبادر أحدنا بالذهاب.. فيتبعه الآخرون بشكل متتالٍ.. فيعود كل منا
إلى بيته ومخدعه..

فى تلك الليلة أثناء وقوفنا المعتاد.. وجدت الرجل نفسه يقف بعيدا
وكأنه ينتظرنى.. وينظر إلى على نحو غريب.. ملت على أحد أصحابى
وقلت له :

- انظر إلى ذلك الرجل..
- أى رجل؟
- هذا الذى يقف هناك..
- لا أرى شيئا..
- هذا الذى يرتدى الجبة والقفطان القديم..
- ما بك أنت مريض؟؟
- لا لست مريضا.. متأكد أنت أنك لا ترى شيئا؟
- اذهب لتنام قليلا أنت متعب.. يبدو عليك أنك لم تنم منذ البارحة..
- لا.. سأنتظر معكم..

هكذا أنهيت الموقف حتى لا يظن أنني قد بدأت في مراحل الجنون..
ولكن الرجل يقف فعلا أنا أراه بعيني.. لا ليست حالة انفصام.. أعرف
الانفصام وقرأت عنه كثيرا.. أهو شبح مثل الذى ظهر فى هاملت!!..
ما الذى أقوله هذا.. بدأت أشك فى قوة عقلى..

تحول الأمر عندى لفضول جامح.. قررت أن أكون جريئا سأواجه
هذا الرجل.. حتى لو وصل الأمر للاشتباك معه.. اقتربت منه رويدا
رويدا.. أسمع نبضات قلبى ترتفع.. حتى صارت أشبه بالقرع على
طبول الحرب.. حتى صرت بمقربة منه حيث يسمعنى جيدا..

* * *

(٢)

- سألته بصوت يرتجف.. وبدا على سوء الحال.. على غير الشجاعة
التي كنت أحاول أن أظهرها..
- من أنت؟ ولماذا تتبعني؟
- أنا رجل تعرف اسمه فقط.. وأنت من طلبت هذا..
- أنا.. ماذا طلبت؟
- ترانى..
- أراك؟؟؟!!
- أنا لا أعرفك.. وتلك هي المرة الأولى التي أراك فيها..
- نعم.. هي المرة الأولى..
- مرت سيارة على مقربة مني.. أفسحت الطريق ولجأت إلى الرصيف..
أما هو فلا.. لم يتحرك شبرا من مكانه.. تعجبت كثيرا.. مرت السيارة
وهو واقف مكانه.. السيارة مرت من خلاله.. بدا وكأنه سحاب..
أو دخان تراكم ليكون تلك الصورة.. لا أؤمن بالأشباح.. لا يعيها عقلي..
أنا مهندس أو كنت كذلك في يوم من الأيام.. لا أعرف تلك الخرافات..
ولكن عليّ أن أسأله..
- هل أنت شبح..
- ضحك بصوت ساخر عالٍ وقال:
- وما نوع تلك الأشباح التي تأتي في صلاة الفجر؟!
- فاصدقني القول إذا.. من أنت؟.. ماذا تريد؟؟.. لم تتبعني؟؟

– أما عن الأول فأنا الفقير إلى الله حسن الزوق..
 – حسن الزوق.. الأسم ليس غريباً.. حسن الزوق صاحب المقام؟؟!!..
 قلتها وقد غلبني الابتسام وبدأ الخوف ينجلى.. وبدأ القلب يعاود
 أدراجه إلى مكانه بعد ما كاد يخلع منه..
 – نعم أنا عبد الله حسن الزوق.. ولا أتبعك فى الحقيقة.. بينما
 تلاحقنى أنت بخيالك.. أما عن ماذا أريد.. فالأولى بالسؤال أنت..
 – أنا.. أنا... اعذرني لا أتفهم الأمر.. هل أنت شبح إذاً؟..
 – هه ثانية.. يا بنى لله فى ملكه شئون لا يعلمها إلا هو.. (قالها
 وهو يبتسم)

أعرف كثيرا عن الصوفية.. وعن روحها.. غير أنى أنكر على أهلها
 التمسح بالأضرحة.. ولى معها باع طويل.. عرفت من أهلها الكثير من
 أناس على علم ودين حقيقى.. وفهمت منهم أن التمسح هذا بدعة
 البسطاء وفولكلور شعبي.. ليس له علاقة بالصوفية ولا أهلها.. وعلمت
 عن شطحاتها التى لا يعلمها أحد من العامة من تلاقى الروح فى الأزل..
 وقد ينكرها الناس عن جهل بها أو استخفاف.. أنا عن نفسى لم أخبرها
 من قبل.. ولا أعرف أكانت حقيقية أم أن تلاقى الروح فى الأزل تعبير
 مجازى مثلاً..

ساد صمتى لحظات حاولت فيها استيعاب الأمر.. تداركت نفسى..
 فادركت أنها فرصة لى على أية حال أن أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه
 أحد غيرى.. سألته أكثر الأسئلة إلحاحا على ذهنى..
 – هل الزوق هذا اسمك فعلاً.. أم أنه لقب ما؟

- الزوق هذا اسم يرجع إلى جدى الكبير.. الشيخ على العطار.. جاء من قرية الزوق عند نهر الأردن.. لم يكن هذا اسم القرية.. فقد كان اسمها السوق.. ولكن تبدل السنة الناس وتوافد غير العرب إليها.. حور الاسم إلى الزوق.. كانت تلك القرية الصغيرة بمثابة دار تجارة كبيرة فى الشام.. فيها كل أنواع العطارة وزيت الزيتون وعسل النحل الجبلى.. فهى فى عصرها دار للأدوية والتطبيب.. (تأكدت بعدها أن القرية كانت موجودة فعلا حتى هدمها الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين.. وكانت القرية مقسومة إلى جزئين الزوق التحتانى والزوق الجوانى)..

نزل جدى إلى مصر بعدما طغى القرامطة على الشام.. فهؤلاء القوم لم تكن لهم حرمة ولا يقفون أمام شىء أبدا.. نهبوا الأرض والناس وأتوا على الأخضر واليابس.. حتى وصل الأمر لسرقة الحجر الأسود من الكعبة.. حكى لى جدى أن الحج ظل متوقفا عشرين عاما أو اثنين وعشرين..

- وأين ذهبوا به؟ (سألت متلهفا)

- وضع فى بلاد البحرين.. حيث قويت شوكتهم فيها وكانت لهم ملجأ..

- وأنت من أى العصور جئت؟؟

- من عصر حكم فيه ولاد الناس.. ممن لا نعرف لهم أصلا ولا نسبا ولا أبا.. فى عهد سمى الحاكم المملوكى شيخ البلد (الدولة المملوكية المتأخرة بعد السيطرة العثمانية فى عهد سليم الأول على مصر والقضاء على المماليك فى معارك عدة أشهرها مرج دابق)..

- المماليك..

- ومن غيرهم؟ (قالها بمرارة شديدة)..
- توقعت هذا.. عندما عرفت أنك مت كمداء.. تعرف رجع المالك
ثانية فى عصرنا ولكن على شاكلة أخرى.. (قلتها مازحاً)..
- وهل هم من الجراكسة أم نهر الفولجا..
- لا.. من المقطم..
- لم يفهم بالطبع تلك المزحة.. ولكن بدا على وجهه دهشة غريبة ثم
نطق بصوت حزين..
- وهل صرتم تستعبدون الناس من بنى جلدتكم؟
- أغرورقت عيناي بالدموع من الضحك.. حتى ظن صاحب المقام أنني
أهزأ به.. أو شك فى الأمر.. حاولت تدارك الموقف والإسراع فى الخروج
منه (الموقف) ..
- لا يا شيخ حسن.. ليس الأمر على هذا النحو.. ولكن بالمناسبة
هل تقطم المقطم حقاً.. هل تحرك من مكانه بمعرفة أحد الصالحين من
القبط فى العصر الفاطمى..
- أى خبل تدعيه يا بنى.. لم أعش فى العصر الفاطمى.. ولكن تدافنا
فى القرافة هناك أبا عن جد.. وأعلم أن منذ عهد عمرو بن العاص رضى
الله عنه يدفن الخلق هناك وهو مدفون هناك.. ولم نسمع يوماً أن الجبل
يتحرك.. قل لى يا بنى هل فقدتم العقول فى عصركم هذا؟!!
- حقيقة الأمر يا سيدى أن المخ عندنا لا يستخدم إلا فى الطعام..
- الطعام؟؟.. أتأكلون لحم البشر يا بنى..

قهقهتهى ألفتت نظر من مر فى الشارع.. فقد بدأت الناس فى الخروج من منازلهم.. يرون شابا يقف وحيدا فى الشارع يحدث نفسه ويضحك.. هكذا بدأت إشاعة الجنون التى اجتاحت الحى بعدها.. فقلت:

- يا شيخ حسن.. تعال معى إلى البيت مادام لا يراك غيرى..

صعدنا إلى شقة والدى.. والتى طالت استضافتى فيها.. حتى صرت ضيفا ثقيلا.. والآن أنا ضيف ثقيل ومجنون.. رحماك يا إلهى.. لم يكن هناك من متيقظ غير أُمى تصلى الفجر.. بهدوء شديد دخلت غرفتى وأغلقت الباب مسرعا.. قلت فى نفسى هذا وقتى كى أدون ما يقوله الشيخ.. مسرعا أحضرت قلما وأوراقا.. حتى يبدأ الحديث المثمر.. وجدت الشيخ واقفا أمام الكمبيوتر.. ينظر إليه بتعجب شديد.. برغم الاندهاش من كل شىء يراه لم يسأل عن شىء غير تلك المرة أشار إلى الكمبيوتر وقال:

- ما هذا؟

- هذا عالمى الخاص.. يسمونه الكمبيوتر.. تستطيع من خلاله أن تصل إلى أى شىء تريده.. من دون إزعاج.. أو تطفل.. دعنا لا نضع الوقت.. أخبرنى عن حياتك ما تريد أن تقوله عنك أو عن مصر.. أو الممالك.. سأكتب سيرتك كما تقول وبعنوان «ولى الله يتحدث».. أو العارف بالله يحكى مثلا (كان هذا قولى بعدما قررت ألا أقاطعه أبدا.. كم كانت قاصر الطموح!).

- اسمع يا بنى سأحكى لك ما تريده عن حياتى.. وعليك أن تحكم أنت هل كنت وليا أم مجرد إنسان فهم معنى أن يكون إنسانا فى زمن

نزع من الإنسان كيانه والرحمة من قلبه... اسمى حسن الزوق ولدت فى القاهرة سنة ١١١٨ من الهجرة النبوية الشريفة.. فأنا مصرى وكذلك أبى وجدى إلى جدى الكبير العطار المهاجر إلى الفسطاط منذ ٣٦٤ هـ.. هربا من بطش القرامطة كما ذكرت...

عملت عطارا ورثت تلك المهنة والتطبيب كابرا عن كابر.. مهنة أبى وأجدادى.. وقد برعت فيها حتى إن الناس كانوا يسافرون أياما ليصلوا إلى للتطبيب.. ذكرت لى أمى يوم ولدت لم يجدوا قماشًا حتى يضعونى فيه.. غير كفن أبى الذى اشتراه وجعله فى البيت.. فجنّت إلى الدنيا بكفن وخرجت منها بكفن (قال ذلك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة)... (ذكر الجبرتى فى يومياته أن فى ذلك العام انقطعت التجارة بين مصر والهند وشح القماش)..

سكنا القاهرة فى الحى الحسينى بعد حريق الفسطاط فى آخر العهد الفاطمى حيث أتت النار على بيت الزوق الكبير الذى عرف بهذا الاسم.. ظلت النار مشتعلة فيها واحدًا وخمسين يوما.. بنى جدى حانوتا آخر غير الذى حرق فى الفسطاط عند باب الفتوح.. و عرف هذا الحانوت باسم الزوق العطار.. رحلت عائلة الزوق الكبير عائدة إلى الشام بعد هذا الحريق ولم يبق غير جدى عبد الرحيم الذى بنى بيتا آخر فى القاهرة وأبى أن يترك مصر أبدا.. عمل فى العطاره وكذلك أولاده من بعده.. حتى أتى الطاعون على مصر من بعد فقر شديد وثورة عارمة فى البلاد أيام المماليك.. فارتحل بقية أحفاد عبد الرحمن إلى المغرب.. وهكذا لم يبق فى مصر غير جدى حسن الكبير.. وكان له ولدان مالك

وأبى عبد الله.. مات جدى قبل أن أولد بسنوات.. مات وهو يحج ودفن
فى مدينة رسول الله..

ورث أبى عن جدى مهنة العطارة.. أما عمى مالك فأثر أن يعمل نجارا
فكان لا يحب العطارة.. ويكره ريحها.. كان يقول هذا دوما غير أن للأمر
سببا آخر خفياً.. فقد كان يخشى أن يزور أبى فى الحانوت حتى...

لم يكن إخوتى يعملون بالعطارة معى فأخى محمود كان عالما بالأزهر
الشريف يدرس الشريعة.. وكان له عامود ولكن لم يعرف باسم الزوق..
وكذلك أخى إبراهيم الذى كان نجارا فى بداية أمره على الخلاف منا..
فلم يسم بالزوق غيرى.. فأنا بمثابة حامل راية عائلة الزوق التى فنيت
من بعدى.. واندثر اسمها.. فلم يكتب الله بالولد الذى يحمل اسمى
واسم الزوق من بعدى.. رزقنى الله بثلاث بنات أسمتهن أمهن كما كانت
تحب دائما.. شويكار الكبرى.. فيروز وفتيمة.. نعم هكذا اختارت رقية
زوجتى أسماءهن (هز رأسه حزنا وقال) رحمها الله...

- هل كانت تركية؟؟..

- نعم.. (مبتسما).. من أصل تركستانى.. لا تعجل سأحكى لك فيما

بعد عنها..

- هل تذكر أحداثا كانت فى صغرك عن المماليك؟

- يا بنى، الأحداث متلاحقة وللمماليك سجل طويل فى الصراع..

لا يمر شهر إلا ونسمع عنهم من خبر.. والناس والعوام حيارى معهم..
وهم لا يكلون أبدا من صراعهم.. كثيرا ما سمعت من أبى عن

مجاجعات اجتاحت البلاد.. ومات على إثرها العباد.. حتى سمعت يوماً من أبى أنه قد أتت على مصر محن عضال حتى صار الناس يستأجرون أربعة رجال أشداء لحراسة رغيف الخبز.. وأنا لا أذكر كثيراً من أحداث صغرى..

أذكر مثلاً يوم تقلد إبراهيم بك أبو شنب الكبير.. يومها احتفل الناس كعادتهم بالأمراء الجدد وأغدق عليهم من العطايا.. يومها أعطاني أحد الجنود من ولاد الناس نصف فضة فى يدي.. ظللت محتفظاً بذلك النصف حتى مات إبراهيم بك بعد عام (كان ذلك ١١٢٩ - ١١٣٠هـ).. فأخذت النصف واشتريت به كعكة بالسكر..

ويوم قطع رأس على باشا المظلوم وأرسل للباب العالى مسلوخاً.. ودفن فى قبر أبى جعفر الطحاوى بالقرافة يومها أخذنى أبى معه لنصلى عليه.. وسألته يومها وأين رأس الرجل يا أبى.. قال فى إسلامبول.. قلت وكيف يدفن من غير رأس.. نظر إلى نظرة شديدة وقال لى أسكت.. وما أن رجعنا للبيت إذ بمنادٍ ينادى فى الناس «من آوى محمد جركس يشنق على باب داره».. يومها خشى أبى علينا وأغلق الباب ومنعنى وإخوتى من الخروج.. لم أكن أتفهم حينها ما الذى يحدث ومن محمد جركس هذا.. (انظر الجبرتى)..

(قام من مكانه الجالس عليه وقام ينظر من الشرفة من خلف ستار قد أسدل عليه ثم التفت إلى وقال) وأذكر يوم مات جدى لأمى.. كنت فى الأزهر جالسا لأحد أعمدته أستمع إلى الشيخ.. دخل علينا أخى الصغير إبراهيم الذى أكبره بخمسة أعوام فى هدوء قرب من أذنى وقال أبى

يريدك فى البيت حالا.. لم أتوقع وقتها خيرا.. فأبى كثيرا ما يحذرني من ترك مجلس للعلم.. شعرت فى قلبى بالخيفة الشديدة.. ارتجف قلبى يومها أدركت معنى الموت لأول مرة فى حياتى.. برغم أن جدى كان طاعنا فى السن.. إلا إنه كان بمثابة الصديق القريب بالنسبة لى.. هكذا هى الحياة يا بنى فراق يلحق فراقا.. يومها دخلت البيت وجدت فيه أناسا كثيرا وقد ارتدت أمى الأسود.. ارتميت فى أحضانها أبكى.. دون أن أفهم الأمر بعد لم تكن سنى بالتى تعى كنت ما أزال طفلا.. رحمه الله كان رجلا حكيما.. يحكم بين الناس بالعدل ويقصده التجار والعامه فى منازعاتهم.. فيقضى بينهم بالحق.. مات يوم الجمعة.. كان أبى يقول دائما ليتنى أموت الجمعة.. وهكذا دعوت من بعده.. ولكنى لم أمت الجمعة على أية حال...

تعلم.. بيتنا كان كبيرا يتوسطه نافورة ماء مزركشة.. كان هذا البيت لمغربى سكن القاهرة فيمن أتوا إليها مع الفاطمية.. كان يظن الناس أننا أقرباء هذا الرجل.. فقد كان يزورنا بين الحين والآخر وينزل عندنا ضيفا كلما أتى من الفيوم.. التى سكنها بعد ما ترك القاهرة.. حتى إن الناس ظنوا أننا من أصل مغربى.. القاهرة مدينة عظيمة قصدها الكثير من الناس من الشرق والغرب.. ربما جعلت تلك الأصول المختلفة فيها تناغما لبعض الوقت.. وصراعا دائما على مدى التاريخ فى أوقات أخرى...

* * *

(٣)

- هل تذكر شيئاً من صباحك؟
- هلا تكف أنت عن مقاطعتي ودعني أسترسل في أمرى كما أشاء..
- اعذرني فقط يغلبني شغفى.. حسنا لن أقاطعك..
- صباحى... كيف أنسى أجمل أيامى؟!.. تلقيت العلم فى الأزهر الشريف كبقية إخوتى حفظت القرآن الكريم وبعضاً من الأحاديث وشيئاً من علم اللغة والفقه.. كانت أجمل أوقاتي وأنا ألعب مع أقرانى فى ساحة المسجد ريثما يأتى الشيخ مسعود.. يعنفنا قليلاً ثم نبدأ الدرس منصتين إليه.. كان رجلاً قبطياً أسلم أبوه ورباه على الإسلام ودرس فى الأزهر حتى صار صاحب عمود فيه.. كان رجلاً رحمه الله زاخراً بالعلم.. وبين الحين والحين يمتعنا بقصص التاريخ أو طرفة من طرفه التى تروح عنا كثيراً...
- حكى إلينا أنه اتفق فى يوم مع خمسة من زملائه من طلاب الأزهر فذهبوا إلى الأهرامات ليدخلوها وكتبوا أمرهم عن الناس.. وما إن وصلوا إلى حفرة حتى خاف من كان معه أن ينزلوا بينما ادعى هو الشجاعة وقرر أن ينزل هو جاءوا بحبل أحضروه معهم وأنزلوه على مهل.. وسرعان ما انقطع الحبل ووقع الشيخ فى ظلمة شديدة غير سلخ من الضوء بدا من أحد الثغور.. فوجد تمثالاً جالساً ممسكاً بعضاً.. أخذ العصا منه ليتكى عليها حتى يجد مخرجاً.. انقطع به السبيل فى الخروج إلى أصحابه.. ظل فى مكانه وانقطع سلخ الضوء وحل الظلام حتى عاود الضوء فى

اليوم التالى فوجد ثعلبا فتبعه حتى وجد مخرجا ضيقا.. وسع المخرج قدر المستطاع حتى يستطيع الخروج.. وما إن خرج حتى سقط مغشيا عليه.. فالتقطه بعض السيارة وأحضره إلى القاهرة مقابل تلك العصا الذهبية التى أخذها من التمثال.. وما إن رجع لأصحابه فى الأزهر.. خافوا منه وانصرفوا عنه بعيدا.. زاعمين أنه مات وجاءت روحه الملعونة تحاصرهم.. وظلوا على هذا حتى حكى لهم ما حدث له.. ودائما ما كان يسرد ويسترسل فى الأحوال التى رآها فى الهرم...

هل بقيت تلك الأهرامات إلى عصركم يا بنى؟

- نعم يا شيخ.. هى الآن بالنسبة لنا أكثر قيمة من كثير من البشر..

- هل عبدتوها يا بنى؟

- ها.. وهل عبدتوها يا شيخ أنتم؟!!

- لا.. أستغفر الله..

- وكذلك نحن.. هى الآن بمثابة رمز لعصر من أعظم العصور التى

عاشها الإنسان المصرى القديم..

- أليست طلاس حتى تحمى مصر من الماء ومن العدو.. وهى قبر هرمس

وأخوديمون من حكماء الرومان.. ألا يحجها الصابئة ويلقون فيها النذور؟!!

- لا.. لا.. ليس كذلك أبدا.. ألم تخلفوا لنا آثارا كالقلعة مثلا

والحصون.. هى كذلك كانت قبورا لقدماء مصر من قبل الروم أصلا..

- سبحان الله.. كثيرا ما كنت أذهب إليها ويثيرنى الفضول لأعرف

ما بها وما أصلها ولكن كنت أخشى مما حكاه لى الشيخ مسعود.. وهذا

التمثال أبو الهول؟..

- نعم لا يزال قائماً.. تلك آثار مرت عليها سبعة آلاف سنة.. يأتي العالم ليشاهد قدمها وتاريخها العظيم..

- كنت أعرف أن أبا الهول هذا طلسم ليمنع الرمل عن أهل الجزيرة وكان يقابله آخر يشببهه على وادى النيل فلما جاء محمد بن قلاوون هدمه وبنى عليه المسجد الجديد على النيل ولم يبق منه شيء برغم أنه ظل حتى ٧١١هـ.

- تلك هي المرة الأولى التي أسمع عن هذا.. هل كنت تصدق تلك الخرافات يا شيخ وأنت رجل أوتيت علماً؟!

- العلم يا بنى لا يحمى النفس البشرية من الخرافات فالنفس أميل للمرح.. عشنا حياة مريرة لم تكن لنا فيها متعة غير الخرافة نتناقلها ونمرح بها.. أحيانا كنت أصدق قصصاً كثيرة لا عن تصديق أو يقين أو إيمان بل هي قصة كغيرها.. الفقر يجعل دائماً العامة يختلقون القصص والأساطير يسلمون بها أوقاتهم.. ويجعلون منها مهرباً من واقعهم الذى يعيشونه.. كنا كذلك أيضاً.. نقنع بما نحن فيه ونترك أهل الأمر لأمرهم.. بالرغم من ذلك لم نكن نسلم من بطشهم.. فكل شيء لنا حلال لهم..

(استدار إلى ورفع يده يشير فى الهواء انفعلاً وقال بصوت هادئ):
ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى.... حتى أرى دولة الأوغاد والسفل..
يوم حريق الفسطاط بدأ الحريق بليل وسفن الصليبيين راسية على البحر (يقصد النيل) حكى لى جدى عن والده.. كانت النار تعلو فى السماء وكأنها لظى تسعر كل شيء والناس تصرخ فى الشوارع ويحملون

أولادهم ويجرّون الدواب والبغال.. والنار تجرى من خلفهم تلحق من تلحق فتلفحه.. قالوا يومها إن العاضد خشى على الفسطاط من الصليبيين فحرقها.. ظلت النيران تتصاعد وتحرق كل شىء ثلاثة أيام.. وبعدها خمدت بعد أن أتت على الفسطاط عن آخرها ولم يبق غير جزء من مسجد عمرو عليها بركة ابنه عبد الله..

- هل حقا فعل ذلك العاضد الفاطمي؟

- كان شابا لا يدرك حينها.. يا بنى إن للسياسة أمورا لا يعلمها غير أهلها.. والمصريون أهل فضل وصبر.. إيمانهم يسعى بين أيديهم فيجعل منهم على البلاء جلدا.. أيا من كان حرقها فقد رضينا وقد كانت باكورة حرب.. وبعدها انتهى الحريق.. انصرفت المراكب راجعة إلى بلادها بعد ما رأوا النار من بعيد...

- لم تحدثنى عن زوجتك بعد هل تزوجتها عن حب؟

- لم تسمعك أمى... وهل ترانى صنما.. من يعيش يا بنى ولا يعرف عن الحب لم يعيش أصلا..

* * *

(٤)

كنت جالسا فى يوم فى حانوت العطارة.. شاب فى بداية ريعانه لم يتجاوز العقد الثانى بعد من عمره.. يومها ترك أبى الحانوت وانصرف لبعض أشغال لا أذكرها حتى.. كل ما أذكره عندما دخلت على الحانوت مبتسمة كأنها وردة جميلة أضفى اللون الأحمر على وجنتيها ستارا يوارى جمال وجهها.. عيناها الزرقاوان تحكيان عن أشياء كثيرة وموج بحر متخابط.. ووجهها الممتلئ وأنفها الأخنس يشعل النار فى صدرى..

قالت بصوتها القيثارى أريد البخور الهندى.. لم أسمع ما قالته فى المرة الأولى.. فابتسمت وكان البدر قد أظهر جماله فى ليلة صفت فيها السماء وانتفى كل ما حول البدر من نجوم ليطل بزهو علينا.. ثم أعادت مطلبها فسمعته كأنه صوت قادم من بعيد.. فقلت بصوت متلعثم:

- هل تريدين شيئا آخر؟
- لا.. شكرا..
- كم تريدين؟
- بنصفى فضة..
- هذا كثير.. أليس لكم فى البيت؟
- نعم.. ولكن هكذا قالت أمى..
- نعم.. انتظرى قليلا.... ها هو.. هل من شىء آخر؟
- لا..

- هل أنت من حى الأزهر؟

نظرت إلى وأومات برأسها أى نعم.. و لم تتكلم.. آخر ما أذكره تلك الابتسامة التى تظهر عن أسنانها البيضاء وعن طابع حسن جعل فى وجهها فزاده بهاء على بهائه.. لم أنم تلك الليلة ظل صوتها يطاردنى فى صحوى ووجهها فى نومى.. كنت أعجز عن الكلام.. من أين لى أن أعرف تلك الفتاة.. يبدو عليها أنها ليست مصرية.. للوجه المصرى ملامحه لا أخطئها أبدا.. ربما من الشام أو التركمان.. أفزعتنى فكرة أنها تركمانية فهم لا يتزوجون من أهل مصر أو من غير التركمان.. وظللت أدعو حتى الفجر اللهم لا تجعلها من التركمان.. ألمحت أمدى إلى عدة مرات أننى صرت رجلا وعلى أن أتزوج.. نعم على أن أتزوج تلك الفتاة يبدو عليها أنها تصغرنى بسنوات قلائل.. أعلم أن أمدى عندما حادثتنى عن الزواج كانت تقصد ياسمين ابنة عمى مالك.. ولكننى لا أحبها.. ياسمين فى مثل سننى وهى أخت لى تربينا معا.. لا!.. لم أكن أتصورها يوما زوجتى.. أمدى لم تكن تفهم هذا ولم تفهم أن أمدى محمود الذى يكبرنى بقليل يحب ياسمين وأظنها تبادلته الشعور.. لكن فى بيت الزوق الأم هى الحاكمة.. فوالدى يغيب عن البيت أياما وشهوراً فى الحانوت والتجارة..

هذه حالى وهذه أفكارى ذلك اليوم.. وامتد الأمر إلى أيام أخر لم أعرف فيها نوما.. فقررت أن أفاتح أمدى محمود فهو أكثرنا علما.. وهو أمدى الكبير وله عند أمدى دلالة من نوع خاص.. دخلت عليه وهو يستذكر دروسه.. قلت فى صوت متردد..

- السلام عليكم.. هل لى أن أعطلك قليلا؟
- تعال يا حسن..
- كيف حالك؟
- الحمد لله.. وحالك أنت؟
- فى الحقيقة ليس بخير أريد أن آخذ رأيك فى شىء..
- هل تريد مالا.. أنت من فى الحانوت وليس أنا وتدير شئون البيت والمال..
- لا.. الأمر ليس كذلك.. فى الحقيقة..
- أنت تحب.. (قاطعنى فى الحديث)..
- حقا الناس موتى وأهل العلم أحياء..
- (ابتسم ابتسامة خفيفة).. تظن أننى لا أعرف.. أراك طول الليل يقظاً شارداً ذهن.. أمى تناديك فلا تجيب.. ياسمين؟ (بدا على وجهه القلق عندما ذكر ياسمين)..
- لا.. فى الحقيقة أنا أعرف عنك أيضا ما تخفيه.. وتتحجج بأنك ما زلت تدرس فى الأزهر..
- لا (قالها بصوت مبحوح).. أنا...
- أنت تكابر يا شيخ محمود..
- دعنا من هذا الآن.. من إذن؟
- لا أعرفها..
- أحقا ما تقول (قالها ضاحكا)..
- سوف تتندر علىّ أعرف هذا جيدا.. ولكن جاءت إلى الحانوت مرة..
- أنت رجل سبهلى يا حسن..

- ربما ولكن ماذا أصنع الآن.. كيف أفتح السيدة فتحية والدتك..
- جاء لك الموت..

- وماذا على أن أصنع أرسل لها جوابا وهي لا تقرأ..

- لا تتندر على أمك يا حسن.. كفى أن تقف أمامها.. وستعلم هي

ما تريده وسأعلم أنا عندما أسمع صوت القبقاب يطأطأ..

- أنت من تتندر إذا يا أبو حنفي (كان يكره هذا الاسم فقال مرة

أ يكون اسمي محمود من الحمد وتدعوني أبو حنفي اسم هذا أم شؤم؟

كيف يسمى المرء ابنه حنفي ! لا يليق بأن يكون اسما لطفل)..

- اغرب عن وجهي (قام يركض ورائي حتى أسرع في فتح باب

الغرفة وخرجت منها مسرعا)..

- (أغلقت الباب خلفي ثم فتحته وأدخلت رأسي منه) متى ستكلمها

يا أبو حنفي؟

- من رابع المستحيالات.. لن أكلمها أبدا..

أدركت وقتها أن على الاعتماد على ذاتي المتواضعة في مجابهة

الأسد في برائته، السيدة فتحية رضى الله عنها أمي وأعظم من شاهدت

من النساء وأظنها أعظمهن على الإطلاق.. عندما تثور ثورتها كان أخي

محمود يطلق عليها اسم شجرة الدر.. أذكر في مرة أنه قد دخل محمود

الغرفة مسرعا وأغلق الباب وقال المستعصمية قادمة.. جرى كل منا إلى

السرير يتصنع النوم أو الموت حينها.. فدخلت علينا الغرفة في غضب

وأغلقتها مرة أخرى بحنان.. فقمنا وتضاحكنا.. ففتحت الباب ثانية

مبتسمة.. وقالت الطعام جاهز..

فكيف أواجه المستعصمية إذا لست بأبيك المقتول أو لويس المسجون..
فقررت أن أؤجل الأمر إلى حين.. وقررت أن أجعل جهدى فى المعرفة
عن تلك الخلافة.. لم تمر أيام كثيرة حتى وجدت ثانياً أمامى تحدث
والدى بطلباتها.. وأنا أنظر إليها فى صمت وعزلة عن العالم.. وكأننا
سرنا إلى درب بعيد عن الحياة لم يبق غيرى ووجهها الساحر.. ثم
استفقت على صوت أبى يقول:

– أين الفلفل يا حسن؟

– نعم الفلفل..

أنهت مما تريده فقررت أن أتبعها لأعلم أين تسكن.. استأذنت
أبى وتبعته.. اتجهت نحو حارة الأتراك فى المقابل من الأزهر.. هذا
ما كنت أخشاه.. وجدت امرأة عجوز تجلس أمام حانوت صغير..

– السلام عليك يا خالة..

– وعليكم السلام ورحمة الله.. خيراً يا بنى..

– هل تعرفين بيت من هذا؟

– نعم هذا بيت منصور بك الدفتردار..

– خيبك الله يا حسن (قلتها بصوت خافت)..

– ماذا تقول يا بنى ارفع صوتك لا أسمعك جيداً..

– لا أبداً يا خالة.. قلتِ دفتردار..

– كان كذلك يا بنى قبل ما يعزلونه ويحرمونه من البكاوية..

– ولم؟.. هل كان يسرق؟

– لا يا بنى هذا رجل تقى.. لكن تعرف المالك..

– نعم.. هل عنده أولاد؟؟

- لا عنده بنتان.. رقية وشويكار.. ومتزوج من اثنتين.. شويكار هانم
وهي تركمانية مثله ولا تنجب.. وزينب المصرية أم البنات..

- متزوج من مصرية.. هذا عظيم..

- نعم.. تعرف البنت التي دخلت منذ قليل.. هذه رقية ابنته وهي

مثل أمها تماما.. على خلاف من شويكار هذه متكبرة.. مثل الهانم..

- شكرا لك يا خالة..

هرعت إلى الحانوت سعيدا، الفرح كاد يوقف قلبي.. ولكنى قلت

يا قلب اتئد.. حاولت أن أفتح أبي في الأمر ولكنى وجدت الأمر أكثر

تعقيدا أو كذلك ظننت حينها.. فكتمت سرى وقلت أنتظر حتى أفتح

شجرة الدر في الأمر..

وصلت إلى البيت الكبير وأمى تجلس كعادتها في ركن الصحن

الخاص بالكانون المصرى وعليه أواني الطهى النحاسية والفخارية..

وتقطع الخضار فى حلة ورثتها عن أمها كانت تحكى لنا أنها من عهد

جدتها الكبرى منذ عهد الأشرف اينال (دولة المماليك البحرية ٨٦٥هـ)..

كيف سأحكى لها عن ذلك التركمانى المسلوب القيمة.. حتى إن ابنته

تخرج بنفسها لتشتري حاجات المنزل.. وكيف أرفض ابنة عمى مالك

والمح لها عن مكنون محمود بالنسبة لياسمين.. مالك عمى ولكنه لا يعمل

بالعطارة كوالدى وجدى... تعلم النجارة منذ صغره حتى صار يصنع أثاثا

للبكوات والبشوات فى قصورهم ويزخرفها بالصدف والأرابيسك..

دائماً ما يستميل إبراهيم أخى الصغير ليعمل معه فإبراهيم لا يحب

العطارة مثل عمى ووجد فيه عوضا عن ابنه المدلل.. دائما ما يتهرب

إبراهيم من أبى حينما يطلب منه شيئاً من الحانوت.. ولكنه أميل لأن يكون نجارا مثل عمى مالك.. فكرت حينها أن أحدث إبراهيم بالأمر فيقول لعمى مالك ولكنى قلت ما هذا العبث.. إنه لأمر مخز إلى درجة الفضيحة ولن يمر بسلام خاصة إبراهيم لا يزال صغيرا حتى يعى مثل تلك الأمور.. ليس أمامى إلا أن أجابه شجرة الدر...

دخلت متباطئاً أكاد لا أسمع خطواتى وعلى الرغم من أن أمى كانت متجهة إلى الكانون غير أنها عرفت أنى أنا القادم.. التفتت إلى وقالت:

– ماذا تريد يا حسن؟

– أنا لا شىء.. فقط جئت أسأل عن الـ.. الطعام.. ماذا أعددت اليوم؟

– هل سمعت سؤالى.. ماذا تريد ومنذ متى تسأل عن الطعام؟

– أنا جائع..

نظرت إلى نظرة متفحصة وكأنها تقرأ أفكارى.. قلت فى نفسى على أن أبدأ بأمر محمود.. سامحنى يا محمود.. سيأتى من الأزهر يجد مذبحه فى البيت بسببى.. قلت:

– لماذا لا يتزوج أخى محمود؟.. أنا أخشى عليه..

– (مقاطعة).. أخوك يدرس فى الأزهر.. ولا يريد الزواج الآن..

– أخشى أن يكون الأمر غير ذلك..

– ماذا تقول أيها الخبيث؟

– أبدا.. أقول ربما لأنه يميل إلى واحدة ما من الفتيات..

– صه أيها الخبيث.. أخوك رجل علم وصاحب عمامة لا يفعل مثل

ذلك أبدا..

- وهل هذا حرام مثلاً.. وأنا لا أعرف..
- حسن.. اذهب الآن عندي ما يشغلني..
- أنا أعرف إلى من يميل الشيخ محمود ويتخرج من قول مكنونه..
- ألا تكف عن هذا؟!
- إنها ياسمين..
- ياسمين ابنة عمك.. (قالتها مبتسمة)..
- نعم.. ومن غيرها.. ألم تلحظي شيئاً بينهما؟
- أخوك خجول ولا يتكلم كثيراً.. اسمع لا تحدث أحداً بذلك..
- اذهب الآن وعندما يأتي أخوك سأعرف إن كنت صادقاً أم.... تعرف
- يا حسن إن كنت كاذباً سألفحك بنار هذا الفرن..
- هذا أقل ما في الأمر يا شجرة الدر..
- كانت تضحك وتدارى ضحكها بالضجيج عندما يناديها أحد منا
- بذلك.. وبالرغم من هذا يرتسم على وجهها الابتسام.. ابتساماً من نوع
- غريب فيه فخر وكأنها تباهى بكونها امرأة مثل شجرة الدر.. وكالعادة
- قالت بابتسام وصوت قوى..
- اذهب أيها الوغد..
- أيتها المستعصمية (قلت ذلك وأنا منحن راجع إلى الخلف بظهري
- كتحية السلاطين وبينما أنا راجع بظهري اصطدمت بمحمود وقد رجع)..
- مال محمود علىّ وبصوت سمعته بالكاد.. ماذا فعلت أيها الماكر..
- فقط اكتفيت بالابتسام والخروج السريع.. إلى الغرفة التي تجمعتنا
- كإخوة.. غرفة كبيرة فيها ثلاثة مخادع نحاسية.. سقفها مرتفع بشكل
- يجعل الهواء فيها الجو معتدلاً دائماً صيفاً وشتاءً.. فرشت فوق السرائر

- لا.. لم أسمع شيئاً يتكسر..

- لا تقلق ستسمع عندما أبرحك ضرباً.. أما معي.. فلا شيء..

- لا شيء (بتعجب)..

- لا شيء.. أبدأت رصانة غريبة وقالت لي بكل هدوء.. هل

تحب ياسمين يا شيخ محمود.. لم أجب وتلعثمت وأخرجت المنديل
أجفف عرقى الذى يغمرنى فقالت.. نعم فهمت.. ثم أخذت تحدثنى
عن الموضوع..

- وضوء؟!.. وأنت تريد أن تضربنى؟!.. أنا ذاهب..

أخذ محمود يضحك وغمرت وجنتيه السعادة ونسى ما كان يقدم
عليه من ضربى.. هذا محمود حلت قضيته.. أعرف أن أمى لن تترك
الأمر على الرغم من أنها لم تبد اهتماماً.. وهذا سبب ادعى لأن أتأكد
من أنها ستسعى بكل عزمها فى الأمر.. ها هى ترتدى زيها الرسمى
وهو جلباب أعدته للمهمات الرسمية.. لأمى حركة بيدها إن سألتها
أحد عن شيء فأعرف أن الأمر جد خطير تطوح يدها بشكل دائرى
رشيق.. يبدو هذا التعبير مع شيء من الرصانة.. فعلمت من ذلك أنها
تدبر شيئاً.. سألتها:

- أين أنت ذاهبة؟

- إلى جدتك لن أتأخر..

تساءلت.. إلى جدتى؟!.. ثم خطر فى ذهنى شيء.. لم لا تكون
جدتى؟ كيف غابت الفكرة عنى؟.. كانت جدتى تلك امرأة طيبة رحمها
الله.. إلا أنها كانت لا تحب أمى أبداً أو كذلك كنت أشعر.. لذلك

عجبت عندما قالت أزور جدتك.. فجدتى تعيش مع عمى مالك فى بيته مع زوجته صفيّة وابنتهما ياسمين (العروس).. وأخيها حسونة ذلك الصبى المدلل.. لا يحسن شيئاً فى الحياة غير اللعب ومغازلة النساء والتطلع إلى عوراتهن.. جدتى تحب حسونة هذا ودائماً ما يقول أبى هى سبب فساده...

عادة ما كانت تقول أُمى ذاهبة إلى بيت عمك.. أو إلى خالتك صفيّة.. أما هذه المرة.. لعلها وجدت جدتى هى السبيل إلى ما تريده.. نعم ومن غيرها يستطيع أن يحسم الأمر.. بالرغم من أن جدتى تكره أُمى لأسباب لا أعلمها أو أن الأمر فطرة عند النساء.. إلا أن أُمى لم تكن تبادلهما الشعور هذا أو هكذا أظن.. للنفس خباياها.. أما عن خالتي صفيّة فهى طيبة إلى درجة كنت أعجب لها امرأة متدينة بالرغم من أنها تستخدم الآيات فى غير مواضعها.. عملت طيلة عمرها بمثابة آلة نافذة لطلبات جدتى لذلك كانت تحبها كثيراً.. لذلك قررت ما إن ينقضى أمر محمود وياسمين.. حتى أحكى لجدتى الأمر كله أصارحها دون تردد.. وقلت فى نفسى الصبر يا حسن...

جدتى كانت نموذجاً للمرأة المصرية الصارمة الحاسمة.. بالرغم من الذى بينها وبين أُمى فإن أُمى كانت تقلدها فى كل شىء تقريباً.. لذلك كنا نسميها بيننا أم على.. غريمة شجرة الدر.. فى مرة سمعنا نتحدث عنها وذكرنا اسم أم على.. قاطعتنا بغضب شديد.. وقالت: من تقصدون أيها السفلة.. قلنا أبداً يا جدتى نشبهك بأم على فتلك هى أكثر الحلوى التى نحبها بالمكسرات.. قالت بغضب صارم يببى مدى

كراحتها لأم على (الشخصية).. أنا لا أحبها قتلت شجر الدر وتركتها عارية في ساحة القلعة ثلاثة أيام وتريدنى أن آكلها.. كانت من حزب شجرة الدر مثل أمى.. ترى أنها كانت امرأة عظيمة الجمال والذكاء.. بالرغم أنه لم يرها أحد منهما فإن الجمع على حبها كان دائما يترك بابًا بينهما مفتوحا..

لجدتى تلك نوادر كثيرة.. كانت امرأة متدينة.. تحرص على الصلاة وإسباغ الوضوء.. برغم أنها أيضا كانت لا تحفظ غير الفاتحة وبعض من صغار الصور.. ذهبت للحج أربع مرات.. غير أن لها اعتقادات غريبة ورثتها عن أمها.. لم يكن الأمر غريبا في عصرنا فقد انتشر الخرف والخزعبلات بشكل غريب بين الناس.. كانت تقول مثلا أن لابد من رش البيت بالماء والملح فى الأركان الأربعة.. اعتقادا منها أن ذلك يطرد العفاريت.. وأيضا حينما ترش الماء الساخن على الأرض تقول بلفظتها العامية «دستور يا أسيادنا».. وغير هذا كثير من ألوان الشعبذة..

سألت يوما الشيخ يعقوب.. أول من حفظت على يديه القرآن الكريم.. عن هذا الأمر.. فقال: كيف يا بنى يجعل الله من الإنسان سيذا للكون وسخر له كل شىء ويجرى خلف هذا الخرف.. كان رجلا جميلا قليل إنه فى شبابه كان يهوديا ثم أسلم.. وبالرغم من بصره الذى كف فإن فراسته كانت جامحة على كل حواسه.. امتاز بخفة الظل أيضا لذلك كنت أشك فى أصله اليهودى هذا.. فعندما يخبط أحداً وهو سائر كان يقول «الغريب أعمى ولو كان ضريراً».. رحمه الله...

* * *

(٥)

انتظر الليل حتى أعرف إلى ما افضت مساعى أمى.. بالرغم من أن شيئاً كان يقول فى نفسى إنها لن تعود قبل أن تنهى الأمر على ما يرام.. أعرف أمى كما تعرفنى هى.. لم يطل انتظارى كثيراً بعد العشاء.. جلسنا كالعادة مجتمعين على العشاء.. جلست أمى آخر واحدة معنا بعدما تأكدت أننا جميعاً حاضرون.. قالت بصوت واثق و عينين براقيتين.. باركوا لأخيكم الشيخ محمود سيكون زواجه أول الشهر القادم على ابنة عمه ياسمين.. ثم التفتت إلى والدى وقالت هكذا قالت الحاجة (تقصد جدتى)...

تلقى محمود الخبر ببشاشة وسعادة غامرة.. بالرغم من أنه كان يحاول أن يستحضر وقاره الدائم فإنه لم يقدر أن يخفى الأمر أكثر من ذلك.. ملت على أذنيه مهنياً.. ها قد حلت المعضلة.. نظر إلى مبتسماً ثم تعانقنا عناقاً طويلاً.. عرفت يومها أن الليلة سعادة محمود لا توصف.. قررت ألا أشغل باله بأمرى.. وأن أصارحه غداً.. الآن دور جدتى غداً فى الصباح آخذ البن اليمنى الذى تحبه.. وأفاتها فى أمرى..

مر الليل طويلاً.. بنوم متقطع وقلق على العكس من محمود فقد نام قرير العين وكأن نفسه قد سكنت.. أما أنا فقد شغل بالى الفكر وتساؤلات عدة.. ماذا لو رفضت جدتى الأمر؟.. ماذا لو قلبت على أبى؟.. ماذا لو رفضت أمى الأمر؟.. ماذا لو رفض الدفتردار الأمر؟.. ليس من السهل أن تناسب دفتردار تركى فهم لهم عادات وأعراف فى زواجهم.. أما هذا فمتزوج من مصرية بسيطة.. اتخذها زوجة وليست جارية...

وأخيرا أذن الفجر.. ها قد انتهى ليلي الطويل.. وعند شروق الشمس كنت فى بيت عمى مالك.. أعد القهوة لجدتى.. لا أجد شيئاً آخر يمهد الأمر غير شجرة الدر.. أو كما كانت تصر على تسميتها شجر الدر.. لا أعلم أيهما صحيح أو أنها كانت تريد من جمع الشجر للتعظيم.. ولكن كانت دائماً تصحح لمن يقول شجرة الدر أن الاسم شجر الدر.. على العكس من أمى التى كانت تصر دائماً على أن اسمها شجرة الدر.. جلست كعادتها على الأريكة الموضوعة تحت المشربية وتناولت قح القهوة من يدي.. وأطالت النظر كعادتها متأملة فى السماء والأرض وفى شوارع المحروسة كما كانت تطلق على القاهرة.. اخترق صوتى هذا الصمت بشكل مرتبك..

- هل كانت شجر الدر يا جدتى جميلة؟

- كانت رائعة الجمال.. كانت أرمينية.. وهؤلاء النسوة يعرفن بجمال العينين وبياض الوجه.. (ثم سكتت قليلاً).. ولم تسأل عن جمالها هل كبرت وخبرت النساء يا بن فتحية؟..

- لا فقط كنت أسأل عنها كامرأة.. أجد فيها الكثير منك يا جدة..

- تتملقنى.. أنت تريد شيئاً آخر آت ما عندك..

- أنا لا أبدا.. أنا.. أنا.. (بصوت مرتجف)

- لا تخف يا حسن.. لن أخبر أمك بالأمر..

- أريد أن أتزوج يا جدة..

- هل غرت من أخيك محمود (قالتها ضاحكة)

- لا.. الأمر ليس كذلك..

- إذا أنت تحب يا بن فتحية..
- نعم.. لن أستطيع أن أنكر.. وليس عندي ما يشغلنى عن الزواج..
- ومن تكون؟
- آه.. من تكون؟.. ابيبيبيبيبييه.. هي.... هي... هي...
- ستعاود من جديد.. احك ولن أخبر أحدا.. هذا وعد..
- إنها ابنة أتبك..
- أتبك؟!!
- دفتردار.. دارت عليه الأيام.. وحرموه من كل شىء حتى البكاوية..
- هل جننت يا بنى؟
- لا.. أبدا.. إن أمها مصرية..
- مصرية.. تقصد ابنة جارية..
- لا بل زوجته الثانية مصرية.. اسمها زينب..
- وابنتها؟
- رقية..
- اسم جميل.. ولكن كيف تتزوجها يا حزين وأبوها بك؟
- اسمعى يا جدة هذه الفتاة تأتى إلى الحانوت فى طلبات لأمها..
- تقصد ضاع حالهم... أحببت يا موكوس..
- صدقا بل هممت..
- آه وتريدنى أن أفتح أباك فى الأمر..
- ومن لها غيرك يا جدة..
- إذا فانتظر حتى ينتهى أمر أخوك ثم نرى أمرك بعدها..

خرجت من عندها إلى الحانوت.. شعرت أنها تحاول أن ترضنى..
أو ترفض مساعدتى على نحو غير جارح.. دعوت الله أن أراها فى ذلك
اليوم أقصد رقية.. أردت رؤيتها بشدة.. ليس عندى الجرأة فى أن
أذهب عند البيت أنتظر أن أراها.. ولكن كانت أبواب السماء مفتحة
لدعوات المحبين.. وجدتها أمامى.. وكأن الشمس قد سطعت بعد غياب
فى ليالى شتاء ممطرة.. بدا على وجهى السرور.. ولم أحاول أن أخفيه..
ولم أفكر حتى.. أرى نور وجهها الأبيض الصغير وقد زينه لون طرحتها
الأسود فازداد نورا على نوره.. وهكذا لقيتها..

- أهلا وسهلا.. أمرك..

- أريد ملحا بنصف فضة..

- هل من شىء آخر..

- لا.. شكرا..

- عندنا شطة هندية وصلت توا من الهند..

- شكرا الملح فقط..

- نعم.. ها هو الملح يا رقية.. هذا اسمك صحيح..

- لا.. نعم..

أسرعت خطواتها مبتعدة عن الحانوت وكان بها شيئا.. حاولت
أن أتبعها ولكن لا أملك الجرأة أبدا.. ويلي ماذا فعلت!..! هل تخبر
والدها.. أين ذهب عقلى.. أم أن الحب يذهب العقل.. لا أعرف.. هذا
دورك يا محمود.. نعم هذا دورك.. استأذنت أبى وخرجت إلى الأزهر
حتى أرى محمود.. وجدته جالسا فى ساحة الأزهر.. يدارس أمرا مع
أصحابه.. لم أبال بما يفعل.. ناديته

- يا شيخ محمود..
- حسن.. هل حدث شيئاً..
- لا أبدا.. كنت أريدك فى شىء ما..
- خيرا.. هل من سوء؟
- أبدا يا محمود إنه شىء يخصنى أنا..
- ليس بعادة أن تأتنى هنا..
- اسمع يا أختى.. لقد ساعدتك فى أمر زواجك.. وجاء دورك الآن لتساعدنى.. لن أجد غيرك وأخوك إبراهيم لا يزال صغيرا لا يفهم تلك الأمور..
- ألهذا أتيت إلى هنا ووجهك مصفرا (قالها ضاحكا)
- لا تقلل من الأمر يا محمود.. فأنا الآن فى مشكلة..
- الحب مشكلة.. وأية مشكلة.. اسمع عندى الآن درس.. انتظر بعد العصر وسألحقك إلى البيت..
- نعم.. لا تتأخر..
- ألهمنى ذلك بعض الصبر والتمهل.. وعندما حان الميعاد عاد.. دخل الغرفة مسرعا.. وجدنى منتظرا عند مشربية الغرفة على غير عادتى..
- سألتنى على عجل.. ما الأمر وعندما حكيت له قال:
- ويحك.. ابنة الأتبك منصور الدفتردار..
- وما فى ذلك؟
- ألا تعرف قصته.. لن ينالك من هذا غير التعب..
- أعرف أنه عزل من منصبه ومن البكوية..

- وبظنك لماذا أيها الأبله.. لقد خان محمد باشا النشانجى.. سرق من أموال المسلمين ما ليس له حق فيه.. ولولا إسماعيل بك (أمير الحج وقتها) يحفظ له جميلا لقتل وعلقت رأسه على باب زويلة.. ألم تجد غير هذا الرجل... (كان ذلك فى ١١٣٥هـ تقريبا)..
- ربما يكون مظلوما..

- وإن كان كذلك.. أنت تعرف أن أبك تاجر يسافر إلى البلدان وللأتابك معه باع طويل.. ماذا لو علم أحدهم بالأمر؟!.. ألا تخشى علينا من بطشهم؟

- وماذا أصنع فى تلك اللعنة التى حلت بى.. أنت ستتزوج من تحب.. وهذا من حقى أيضا.. ومالى والسياسة وأهلها.. وما يحدث فى القلعة..
- هكذا أنت دائما..

- لن تساعدنى إذا.. نعم.. كنت أعرف هذا.. لك الله يا قلبى..

- حاول أن تتفهم الأمر ولا تكب على وجهك..

- أشكرك يا محمود.. هكذا يكون رد الجميل..

- أنا أخوك الكبير وأخشى عليك.. أنت لا تعرف هؤلاء..

- هه..

- عموما سوف أحاول.. دعنى أتحين الفرصة المناسبة.. وأفاتح

شجرة الدر..

- هذا ما كنت آمله منك.. وأعدك إن فعلت فلك عندى ما تشاء..

ابتسم محمود على مضد وخرج من الغرفة وقد بدا على وجهه القلق

والعبوس.. أعرف أنه سيفاتح شجرة الدر يوما قريبا.. فقط يحاول أن

يستكشف الأمر ويتدارك توابعه.. هكذا هو طبع أخى.. يحسب للأمر السيئ قبل الحسن.. هذا ما جعله يؤجل أمر زواجه من ابنة عمنا إلى ذلك الحين..

- قد فعلت ما أستطيع.. ليس أمامى غير الانتظار.. ماذا عنها الآن.. هل شعرت بما كنت أود أن أقوله.. أم أنها فهمت الأمر على غير حاله.. لا.. لا إنها فتاة ذكية يبدو عليها ذلك.. ليست كما تدعى جدتى على الأتراك أنهم أغبياء متعجرفون.. على أن أكون فى المرة القادمة أكثر جرأة.. أصارحها بحبى لها.. لا ليس إلى هذا الحد.. أبعث إليها خطاباً.. لا.. ربما يقع فى يد أحدهم فتكون عاقبة أمرى خسراً.. ماذا أفعل إذا.. نعم قصاصة ورق صغيرة أضعها فى يدها دون أن يشعر أحد.. أكتب فيها مثلاً أن تلقانى عند النهر.. لو أتت يكون هذا رداً بالقبول.. أيمكن أن يحدث هذا فعلاً.. لم لا.. نعم أظنها ستأتى.. أعرف من عينها أنها تبادلنى الشعور..

هكذا كان يعمل شيطان رأسى.. كتبت القصاصة وجعلتها فى جيبى.. ربما تأتى فى الغد.. ولكنها لم تأت.. ومرت عدة أيام ولم تأت.. ما الأمر إذا.. على أن أسأل عنها.. كيف؟.. لا أعرف.. سأنتظرها عند البيت.. لا لن يمنعنى شىء عن رؤيتها ولو من بعيد.. بالفعل فعلت وجلست أنتظر عند الباب ساعات طوالاً.. ها هو الباب يفتح.. أمام البيت تنتظر عربة تجرها أربعة خيول ويقف إلى جوار الباب حورانى أسمر البشرة.. لبس بزة منقوشة وطربوشاً أحمر اللون.. خرجت من الباب الكبير امرأة بدينة تبدو عليها السمات الجركسية.. وإلى جوارها

فتاة شابة.. مصرية الملامح جركسية الملابس والحديث.. ركبا معاً العربة
وأغلق الباب الحوراني وجرى بالعربة بعيداً...

ها قد بدأت الشمس في الغروب.. رجعت إلى البيت حزينا لا أكلم
أحدًا.. إلى غرفتي التي شهدت ليلة من ليالي الطويلة أنظر إلى السقف
البعيد.. وأتأمل صورتها التي لا تفارقني.. مؤلمة لواعج العشق.. ولكن
من يقدر أن يدفع هذا العذاب الجميل.. فى الصباح ذهبت إلى الحانوت
كعادتي.. فبالأمس وبخنى أبى على هذا التأخر غير المعهود منى..
بالرغم من أنها المرة الأولى فإننى سرعان ما نسيت الأمر كله...

- بينما أنا جالس.. إذ بصوت ينادينى..
- يا ولد..

- من؟.. الراهب سمعان.. كيف حالك أيها الرجل الطيب؟

- نشكر الرب يا بنى على كل حال.. أين أبوك؟

- وصل إلى الغورية فهناك من يحتاج إلى التطبيب.. إذا كنت تريد
شيئاً فأنا لها..

- كبرت يا حسن (قالها ضاحكا)

- تمر الأيام سريعاً على ما يبدو..

- آه.. يبدو على وجهك الشحوب.. هل عندك ما تقوله لعمك سمعان؟

- لا.. فقط أريد بعض الراحة..

- إيه أتداری عن عمك سمعان أمراً يجعلك لا تنام يا بن الزوق؟

- لا أريد أن أشغلك بأمرى..

- إذا فهو.. لا يجعل للجنف راحة.. وتتيه النفس فى دروبه..

- وما ذاك؟

- الحب يا حسن يا بنى.. هل تظننى غافلا عن هذا..

- ومن أين لك أن تعرف عنه.. أنت معتزل الناس فى الصحراء منذ

سنوات لا تأتى إلى القاهرة إلا قليلا..

- درب الحب واحد يا حسن يا بنى.. أنا أيضا محب.. محبة الله

أعظم أنواع الحب.. ولأجله أعتزل الناس..

- نعم.. كم تريد من البخور هذه المرة؟

- لا لن آخذ شيئا الآن.. سأعود عندما تغيب الشمس قل لأبيك

أن ينتظرنى..

فى الحقيقة وقع كلامه فى نفسى.. ولكنى خشيت إن ذكرت له

الأمر يخبر والذى به.. لا أدرى لم خشيت من هذا بالرغم من أن هذا هو

ما أريده بالفعل.. ربما خشيت عليها أيضا..

فى الليل بدا علىّ التعب.. فهم ذلك محمود.. فهذا الشيخ المحب

لا تخفى عنه لواعج الحب أيضا.. فمحمود شاعر ويحفظ من الشعر

الأندلسى الكثير وخاصة لابن زيدون.. فعندما رآنى على هذه الحال

قال أبياتا من شعر ابن زيدون وقعت فى نفسى بشيء من الشجون حتى

ذرفت دموعى..

ذائع من سره ما استودعك

ودع الصبر محب ودعك

زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

يقرع السن على أن لم يكن

حفظ الله زمانا أطلعك

يا أخوا البدر سناء وسنا

بت أشكو قصر الليل معك

إن يطل بعدك ليلى فلكم

(السن هو طائر يصدح حين يموت.. من طيور الأندلس)
بات أمرى عنده مفضوحا.. ورق لحالى فقال: فى الغد سأخبر أمى
عن أمرك.. لا تخف يا حسن.. لم أرد واكتفيت بإيماءة رأسى.. وتطلعت
إلى السقف الذى صار جزءاً منى...

فى الصباح تأخرت فى الاستيقاظ.. غلبنى النوم ساعة الصبح..
لم يقطع غفوتى غير صوت شجرة الدر.. يصرخ فى أذنى..

- هل عقرت نساء مصر حتى تلجأ للأتراك يا بن فتحية؟

- أتراك؟!.. صباح الخير يا أمى..

- صباح أسود يا بن فتحية.. هل جننت يا حسن.. بنت الدفتردار؟!

- تعرفين يا أم محمود للقلب سلطان..

- هل تريد أن تقضى علينا يا حسن..

- لا يا أم.. ألم يشرح لك محمود الأمر؟

- أى أمر؟

- هذا الدفتردار الآن رجل بسيط سلبه المماليك كل ما له من سلطان

ومال وجوار.. وهو الآن متزوج من مصرية مثلنا.. اسمها زينب..

- أهكذا الأمر.. وتريد أن ينالنا ما نالهم فيسلبوا أبك تجارته وبيته..

- أنا ذاهب للحنوت يا أم..

- أية حانوت يا بن فتحية.. ذهب أبوك باكرا وأنت تنام حتى الضحى..

قمت من سريرى دون أن أتكلم.. وأعددت نفسى وأخذت الطربوش

الأحمر ووضعتة فوق رأسى.. وذهبت للحنوت..

- صباح الخير يا أبتِ

- صباح الخير.. مالك يا حسن.. هل بك داء يا ولدى؟
- لا أبدا أنا بخير.. فقط جافانى النوم بالأمس.
- هل صرت رجلا وعرفت الحب يا حسن؟
- حب؟!..! أى حب؟
- هكذا قال الأب سمعان..
- ربما يكون مخطئاً فى تقديره لأمرى..
- ربما يا بنى.. ولكن لا أظن أن أخطئ أنا أيضاً.. اسمع يا بنى أنا أبوك.. اشتد عليك أحيانا ولكن أنا أعلم بك منك.. أحك لى ولا تخف.. سأكلمك كرجل يشكو إلى أوجاعه..
- نعم يا أبى عندك حق.. لقد.. لقد.. أحببت..
- سردت له الأمر واكتشفت يومها أن الحديث معه كان أفضل من حديث النساء.. فبالرغم من أنه يقسو علىّ فعلا فإننى وجدت منه تلك المرة أذناً مصغية وفهمًا للأمر لم أتوقعه.. ليتنى عرفت هذا من أول الأمر.. تعرف بعدما أنهيت حديثى قال:
- اسمع يا ولدى الخميس القادم زواج أخيك على ابنة عمك.. دعنا ننتهى من هذا الأمر أولاً.. وأنا لها..
- كانت تلك الكلمات كالبرد على قلبى.. فأبى يعرف هذا الدفتردار.. ويعرف قصته على حقيقتها.. ويعرف أنه رجل ليس كبقية الرجال فعلا.. فى يوم مرضت زوجته الجركسية تلك.. كان هذا يوم زواجه من زينب المصرية.. برغم أنها هى من اختارتها للزواج بزوجها.. فقد كانت تعلم أنها لا تنجب.. وأشفقت على زوجها من حرمانه من

الولد.. ولكن فطرة النساء تغلب فى تلك اللحظة.. أرسل الرجل فى طلب والدى ليطببها.. ومنذ هذا اليوم صار طبيباً لأسرة هذا الدفتردار الجركسى منصور...

زينب زوجته الثانية تلك ابنة رجل بسيط.. كان يعمل فى قصر شيخ البلد.. اختارتها شويكار.. زوجته الجركسية حتى لا تشعر أنها أعلى منها منزلة.. وبالرغم من هذا.. لم تفقد حب زوجها لها أبداً.. وأيضاً لم تكف عن الغيرة من زينب.. وأصرت يوم ولدت ابنتها الأولى أن يكون اسمها شويكار على اسمها.. وافقت زينب على أن تختار اسم ابنتها الثانية.. وكانت رقية هى الثانية.. قربت شويكار هانم الكبرى.. شويكار الصغرى منها وتولت تربيتها منذ صغرها.. فكان طبعها أشبه إليها.. على الرغم من الملامح المصرية التى طغت عليها...

شويكار الصغرى بلغت العشرين ولم تتزوج بعد.. والسبب زوجة أبيها تريد أن تزوجها من جركسى.. لا من مصرى.. فهى تعدها ابنتها التى لم تلدها.. على عكس الحال من رقية.. فقد أعطيت رقية ملامح جركسية طغت على وجهها.. ولكنها كانت شبيهة أمها المصرية فى البساطة والتواضع.. لذلك كرهتها شويكار الكبرى وعاملتها بقسوة.. وبعدما حل بهم ما حل.. كانت توكل إلى رقية أعمال البيت مع أمها زينب بينما هى وشويكار الصغرى تجلسان فى صحن البيت تتأملان وتتآمران...

زادتنى تلك الروايات طمأنة.. وجرأتنى على أن أقدم لها الورقة المكتوبة.. لا بل أكتب لها شيئاً آخر.. أن تلقانى عند شاطئ النيل بعد العصر عند حوانيت النجارين.. نعم هذا ما سأكتبه.. وبالفعل

كتبت ورقة صغيرة.. ولم يطل صبرى.. فجاءت كعادتها تطلب البخور..
لم أتكلم بشيء كثير فقط سألتها هل تأمرين بشيء آخر.. وبصوتها
الدافى.. قالت لا شكرا.. أعطيتها البخور وفى اليد الأخرى الورقة..
لم تأت وظللت منتظرا حتى آذان المغرب.. وعاودت الأمر أكثر من مرة
ولكنها لا تأتى أبدا...

كعادة المحبين التمسست لها العذر.. ولكن بعدها علمت أنها لا تقرأ..
لم تحظ بالتعليم كأختها الكبرى المغرورة.. ضحكت يومها كثيرا..
لم أعرف بذلك الأمر إلا بعد زواجنا.. سألتها مرة لماذا لم تردى قط على
تلك الرسائل فتأتى.. فقالت إنها لا تقرأ وبالرغم من هذا حفظت تلك
الرسائل فى شكمجية لها...

منذ صارحنى أبى وحكىت له أمرى تبدل حالى معه.. فصار لا يخاطبنى إلا كالرجال.. ولا يرفع صوته فى حديثى كما عهدته من قبل.. غيبة أبى عن البيت جعلته بعيدا عنا.. نحبه ونحترمه ولكن لا نلجأ إليه فى طلب.. فى صغرنا كانت أمى تخوفنا منه.. «سأخبر أباكم حينما يرجع».. هكذا كانت تقول دائما.. خاصة أنه كان يسافر كثيرا ويتركنا فى رحلات تجارته التى تمتد أشهراً.. يذهب خلالها للحج أحيانا.. سمعت جدتى تقول إنها ستذهب معه فى الرحلة القادمة قاصدة الحج.. ستكون رحلة شاقة عليها.. كيف ستحملها؟!.. ولكنها قالت ذلك.. لا تعود غالبا فى رأى أو قول.. سمعتها تحدث عمى مالك أنها تريد أن تموت وتدفن فى مدينة رسول الله.. مثل جدى وزوجها الحبيب الذى لم تنساه يوما.. بالرغم من أنها كتمت حزنها عندما مات حتى على أولادها.. واستمرت على دربه حتى إنها كانت تجلس فى حانوته تبيع للناس.. اكتسبت من ذلك شهرة و احتراماً من الناس.. بيتها لا يفرغ أبداً من الزوار..

فى العام الماضى أعدت جدتى نفسها لتخرج مع أبى إلى الحج.. ولكنها مرضت مرضا شديدا ولم تستطع الخروج معه.. وظننا جميعا أنها النهاية ولكن عفاها الله.. ربما استجاب الله لدعائها.. أذكر أن أمى جلست إلى جوارها طيلة مرضها.. بالرغم من جهود خالتي صفية الكافية.. أعلم أنها تحفظ ذلك لأمى.. ولكن خبايا النساء تستر الكثير من الحقائق..

يعلمن الحق ولكن لا تطيب لهن نفس فى إظهاره.. تلك هى طبائعهن..
ولا يظهرنها إلا فى الشدائد.. هذا عن بنات الأصول.. أما الأخريات فليس
لهن أصل.. هكذا كانت تقول جدتى.. كانت تكره المماليك كأى مصرى..
حتى إن الوظائف الحكومية فى عهدنا تعد عارا وينظر إلى صاحبها نظرة
دونية.. هكذا كان حال المماليك منذ كنت صغيرا...

الناس كرهوا حكم هؤلاء الأشاوس.. ولكنهم فضلوا أن يكونوا فى
حماية قواهم العسكرية.. وبالرغم من هذا لم تهدأ ثورتهم عليهم يوما..
وأىضا لم يهدأ بطش المماليك يوما.. لم تحكم الخلافة سيطرتها على
البلاد بعد بالرغم من المحاولات التى كثرت.. للمماليك حماية وقوة
عسكرية ليست بالهينة.. والمحاولات الصليبية التى لا تنتهى سبب
أدعى للتشبه بهم.. وغض الطرف عن فظاعاتهم.. أدرك هذا الشعب
المصرى بالرغم من فقره وحاجته حينها.. ومن كان يضيق بأمرهم..
يرتحل بهدوء عن مصر أو إلى الصعيد الخاضع للحكم الهوارى.. المستقل
أو شبه المستقل أحيانا..

كانوا قوما أذعيا بحق.. يسرقون باسم الخلافة.. يقتلون باسم
الخلافة.. بأمر من السلطان العثمانى.. بالرغم من أننا كنا نعرف أن
ليس للسلطان العثمانى سطوة عليهم.. وفى حقيقة الأمر كانوا فقط
يستمدون منه الشرعية كما استمدوها من الخليفة العباسى من قبله..
ولم يكن للخليفة حكم عليهم بل كان حبيس القلعة.. قليل الحيلة...
- تعرف يا شيخ.. لم يختلف الأمر عندنا كثيرا.. فالיום لا خلافة..
لا حاكم بأمر الله.. ولكن يحكمون باسم الله.. لم يدعوا غير التدين..

واخترعوا من الدين ما ليس فيه.. وجعلوا له شاكلة.. وجعلوا من أنفسهم فوق العباد.. يحلون ويحرمون.. يكفرون ويدخلون الجنة والنار...
- أستغفر الله يا بنى.. وأى ادعاء هذا.. لم ينقصهم غير أن يفعلوا
كما فعل الحاكم بأمر الله من قبل.. أن يدعوا معرفة الغيب.. ثم ادعى أنه إله..

- أظنهم لو وجدوا سبيلا فلن يتأخروا.. تعرف يا شيخ فى العصر الفرعونى.. بناء الأهرامات.. كانوا يصنعون أوجهاً بشكل آلهتهم التى يعبدون.. يسرقون باسم الآلهة.. ويقتلون باسمهم ويستعبدون الناس باسمهم.. لا بل كانوا هم الآلهة تجسدت فيهم.. هكذا ملكوا.. فالأمر ليس جديداً...

- نعم يا بنى وفعل من بعدهم المجوس.. والنصارى فكره الناس حكمهم.. وكرهوا حتى الدين الذى كانوا عليه...
- دعنا نرجع إلى أمرنا..

اليوم ستجتمع العائلة فى بيت عمى.. بيت العروس.. لا أحد غير الأُسرتين وجدتى.. فرحة محمود اليوم كبيرة.. فسيقدم للعروس مهرها اليوم.. وهدية بسيطة من الذهب على عادة أهل مصر منذ القدم.. هذا ما تمناه طفلة حياته.. أما ياسمين فتتزين وترتدى عباءة جديدة مزركشة مطرزة بالألوان من الحرير.. قد تكون العباءة من حرير.. هذه عادة يوم العروس.. ومحذور أن يراها العريس فى ذلك اليوم عادة اعتدناها كانت تقول جدتى إنه فآل سوء.. ويضرب بالدفوف.. ولا يختلط الرجال مع النساء أبداً فلكل مقامه.. ثم يليه يوم آخر يأتى فيه الناس يهنون

العريس فى بيت العروس ويقدمون الهديا.. أنا سعيد جدا بمحمود وأحمد الله أننى كنت أحد أسباب هذا الزواج السعيد.. مر اليوم الأول والثانى.. أعدت أمى وخالتى صفة طعاما كثيرا.. وأتى الناس من كل حدب وصوب من أغنياء وفقراء إلى مأدبة الطعام.. ثم أتى اليوم الثالث وهو يوم الحناء.. وهو يوم العهد.. يعهد فيه العريس للعروس أن يحسن معاملتها.. وتعهد إليه بحسن الطاعة والعشير.. فى ذلك اليوم أدهشنى شىء غريب.. شاهدت رقية ومعها امرأة مصرية بكل ما أوتيت من ملامح.. أظنها أمها.. هل ضاقت الحياة لتكون صديقة أمى.. من أين عرفت تلك المناسبة.. عادة ما تكون الدعوة فى الأفراح عامة.. ولكن خالتى صفة خرجت من المنزل تستقبلها وتقبلها.. على ما يبدو أنها تعرفها.. من الصعب أن تميز امرأة عن أخرى فى مصر غير أن تكون صغيرة السن فيظهر وجهها.. أما غير ذلك فلن تعرف أن تميز حتى أمك من بين النساء...

حل الأمر.. خالتى صفة تعرفها.. يا لفضل الله ورحمته.. لم يعد أمامى غير الغد.. يوم الفرح.. فى ذلك اليوم لم يشغلنى الفكر كثيرا.. فقد اطمأن قلبى وغير ذلك الانشغال بالفرح يلهنى.. فأشرف على الشربات والخيالة ممن أتوا يتصدرون الزفة.. وغيرها من الأمور.. سيسكن أخى محمود فى بيتنا الكبير خصصت أمى له الغرفة الشرقية الكبيرة التى كانت تسكنها جدتى قبل أن تنتقل للعيش مع عمى مالك.. جهزت تلك الغرفة بفرش جديد وسرير نحاسى.. جهدت أمى فى إعداد ذلك الأمر.. وبالطبع ساعدها إبراهيم وأشرف على ذلك عمى مالك بنفسه.. فصنع

دولابا خشبيًا.. وزخرفه بالصدف.. وكراسى خشبية من الأرابيسك..
وعدنى أبى أن يكون لى مثل ذلك.. وسيعطنى الغرفة الغربية التى كانت
معدة للضيوف.. وستخلو غرفتنا التى نسكنها نحن الإخوة إلى إبراهيم..
ولكنه لا يزال صغيرا...

فى مرة سألت أبى عن سبب كره عمى للعطارة والتطبيب.. ولماذا
لا يأتى أبدا إلى الحانوت على الرغم من أن أبى كثيرا ما يذهب إليه
فى حانوته على شاطئ النيل.. وكان السبب حكاية لها العجب..
حكى جدى إليهما وهما صغيران قصة عن أحد الأجداد فى زمن الملك
العادل أخى صلاح الدين الأيوبي حيث انخفض النيل ومر بالبلاذ قحط
شديد.. فأكل الناس الكلاب والقطط والسدواب والبغال.. حتى انتهت
من مصر كلها.. فأكلوا الوحوش حتى انتهت أيضا.. ووصل الجوع إلى
أن الرجل يذبح ابن جاره ويأكله ولا ينكر أحد عليه ذلك.. ويستدعون
الأطباء للمريض وما إن يصل الطبيب إلى بيت المريض حتى يذبح
ويؤكل.. ومات فى هذا القحط خلق كثير حتى قيل ثلثا أهل مصر..
وفى يوم ما استدعى أحدهم جدى هذا طلبا للتطبيب.. وما إن وصل إلى
منزل المريض حتى شعر بالصدر.. وشعر أنه استدعى ليأكل.. فقام يجرى
وخرج من البيت هاربا ولم يفلت منهم إلا بعد عناء شديد.. وقرر من
يومها أن يغادر مصر إلى الشام وألا يعود إليها أبدا... (انظر ابن إياس
المصرى بدائع الزهور)

للتاريخ غرائبه وفى عصر الفقر والذل لا تستطيع أن تحكم على
القصص أكانت حقيقة أم أنها مما يختلقه الناس من القصص.. وبالرغم

من مأساة القصة.. فإن شر البلية ما يضحك.. فحكى أبى إلى تلك
القصة وهو يضحك.. فمن يومها يخاف عمى على نفسه وكره تلك المهنة
وانصرف للنجارة بعيدا عن كل هذا الرعب الذى يواجهه كلما يتذكر تلك
القصة المفجعة.. وكذلك انكشف السر الغامض فى كراهة عمى للقطارة...
مر يوم الزفاف سريعا كأية لحظات جميلة يحيها الإنسان.. ارتدى
محمود يومها لباسه الأزهرى الجديد.. وأتى الناس من كل حذب
وصوب.. وجاء زملاؤه فى الأزهر الشريف والمشايخ.. وأصدقاء الحى
الحسينى.. وتحاكى الناس عن هذا الفرع.. وزفت العروس إلى بيتنا
وبيتها الجديد...

فى الصباح أتت خالتي صفية إلينا فى البيت حاملة معها ألوان
من الطعام اللذيذ للعروسين.. ومعها حسونة.. يرتدى جلباباً جديداً
مركزشاً تظهر من تحته بطنه الممتلئ.. وأخذ يصب من لسانه الملعون
قباحات عدة.. وتساؤلات تومئ بسوء أدب.. لم أرد عليه احتراماً لأمه
التى لم تعلق على الأمر.. ثم جاء يقف إلى جوارى.. يحاول ببذائه أن
يستفزنى كما كان يفعل دائماً.. حاولت أن أحدث خالتي صفية بالأمر..
ليتنى أستطيع.. طلبت منى أمى أن آخذ حسونة إلى الغرفة.. أعرف
أمى وتلك النظرات العابسة.. فلقد ضاقت من هذا الحسونة.. ولكنى إن
فعلت فلن تتسنى لى الفرصة المنتظرة.. قلت لها اجعلى إبراهيم يفعل..
فهو يقف أمام البيت.. وكالعادة رفض إبراهيم حتى يفرغ إلى أصحابه..
فاضطرت لأن أفعل.. أخذته إلى الغرفة وفى الطريق قال لى أريد أن
أخبرك بشيء خطير...

- ما الخطير يا حسونة؟

- بالأمس فى الفرح تواريبت عن أنظار النساء خلف الباب فلم

ترنى واحدة منهن وشاهدت أشياء بديعة.. أتحداك أن تكون شاهدها
من قبل.. هل تعرف ماذا تفعل العروس ليلة الحناء.. كنت أسترق
النظر وأعرف...

- ألا تخجل؟!.. كفاك..

- أنت هكذا دائما تخجل كالنساء..

- الحياء صفة المؤمن.. إن لم تستح فافعل ما شئت..

- أستحى.. هه.. وكيف ستتزوج؟ ستتستحي من العروس أيضا ها..
- أف..

- ترى ماذا فعل أخوك بالأمس.. ليتنى كنت هنا بالأمس حتى
أسترق النظر إليهم...

- اسمع أيها الـ... الحسونة أنا ذاهب.. أبى ينادينى.. انتظر هنا..

رجعت إلى حيث تجلس خالتي صفية فى ساحة البيت.. فوجدتها
دخلت غرفة العروسين تبارك لهما.. قلت أنتظر حتى تخرج.. لم ألبث
قليلا حتى أتى حسونة.. وقال:

- تأخرت على.. يجب أن أبارك إلى أختى..

هم ليدخل الغرفة بغير إذن.. فمنعته بلطف.. وطرقت الباب حتى
فتحت خالتي صفية.. فقلت لها.. إن حسونة يريد الدخول.. فقالت له
بنظرة غضب.. انتظر قليلا.. التفت إلى وقتها وعاود قباحتها من جديد..
- بالأمس رأيت شعر رقية.. إنه أصفر ناعم..

– من رقية؟

- رقية ابنة زينب زوجة الدفتردار السابق منصور..
– كيف تنظر إلى النساء.. بهذه الحقارة والدناءة.. أترضاه لأختك..
– هه.. يبدو أنك مازلت صغيرا لا تعرف عن غرائز الرجال شيئا..
– اصمت وإلا صفعتك.. ولا تفعلها ثانية وإلا قتلتك..
– قبل أن يبدأ الشجار بيننا خرجت خالتي صفية تحول بيننا..
وقالت:

– اهدأ يا حسن يا بنى.. أعرف أنه بذئ اللسان.. ماذا أفعل لك
(إلى حسونة)؟

- نسيت وقتها الأمر و كل ما قلته حينها..
– خالتي صفية.. أريدك فى أمر مهم.. لا أحدث به غيرك..
– خيرا يا حسن يا بنى.. أعرف أن حسونة ضايقتك ولكن ماذا أفعل
له فى سنه هذه.. آه يا ولدى ليت جدتك لم تدلله إلى هذا الحد..
– لا يا خالتي أريدك فى شىء آخر.. تعالى بعيدا..
دخل حسونة إلى أخته فى غرفتها.. فرحت من دخوله هكذا
فمحمود فى غرفته كفيل به.. عله يعقل.. وذهبت مع خالتي صفية
بعيدا عنهم جميعا..

– هل تعرفين الست زينب زوجة منصور بك؟

– الدفتردار السابق؟

– نعم..

– طبعا.. زينب كانت جارتي فى بيت أبى رحمه الله.. هى صديقتى..

- فى حقيقة الأمر يا خالتى.. أريد أن أتزوج ابنتها..
- أيهما شويكار؟ (قالتها بكراهة شديدة)..
- لا يا خالة رقية..
- ونعم الزوجة.. رقية مثل أمها زينب طيبة وأصيلة.. أما شويكار هذه فرينا يهديها..
- أعرف هذا.. ولكن تعرفين أمى.. أريدك أن تفتحيها فى الأمر..
- نعم يا بنى ولكن أختها شويكار لم تتزوج بعد.. كيف تتزوج أختها الصغرى إذا...
- شويكار هذه تكبرنى فى السن يا خالة..
- نعم يا بنى ولكن الأصول أصول..
- لا عليك من هذا الأمر فقط أخبرى أمى عن الأمر..
- حاضر يا بنى.. ليس عندى أغلى منك يا حسن..
- حفظك الله يا خالة.. ليتك تفعلين اليوم..
- أو مات برأسها أى نعم.. وهكذا اقتربت من الوصول.. ولكن ليت أمى ترضى.. ودعوت يومها كثيرا اللهم اجعلها ترضى..
- يومها لم أنس ذلك قط.. فى آخر الليل بعدما انصرف المهنئون..
- نادتنى أمى وقالت:
- أبشر يا حسن.. خالتك صافية تعرف زينب أم رقية..
- حقا.. (مدعيا عدم المعرفة..)
- طلبت منها أن تزورهم غدا.. ولكن يا بنى إن أختها شويكار لم تتزوج بعد..

- اسمعى يا أمى لقد حكى لى أبى عنهم كثيرا هو يعرف الدفتردار..
- نعم أعرف..
- فلمَ تعترضين إذا؟..
- لا يا بنى لم أعترض.. ولكنى ظننتها تركية.. وأنت تعرف ما بهم من كبر..
- سأنتظر ما تقوله الست زينب فى الغد.. أنا متعب الآن وأريد أن أنام..
- غلبنى النوم.. تعب جسدى طيلة اليوم.. وفى سحابة نومى العميق رأيت رقية تجلس على وسادة بيضاء.. تبتسم إلى.. وترتدى شلحا أبيض فوق رأسها وكوفية زينت رقبتها.. ثم جاء حسونة يشد الشلح هذا فيظهر من تحته شعرها الأصفر كأنه سلاسل الذهب.. وهى تصرخ وتنادينى وتستغيث.. استيقظت مفزعا.. وأيقظت من صراخى إبراهيم فقال:
- مالك يا حسن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..
- لا شىء.. لا شىء.. خيرا إن شاء الله..
- قم يا أخى توضاً لنلحق صلاة الفجر.. ها هو يؤذن..
- إبراهيم أخى الصغير ولكنه من يحنو علىّ دائما.. أحبه بشكل يختلف عن محمود.. فمحمود يخالطنى معه الحب مع الاحترام.. ولكن إبراهيم.. أشعر أننى مسئول عنه.. أحبه كولدى.. وهو صغير كنت أقف إلى جواره حتى ينتهى من لعبه فى الشارع مع أقرانه.. ولما كبر حاولت أن أجعله معى فى الحانوت.. ولكنه أبى ذلك فهو حساس عطوف.. لا يستطيع أن يرى آلام الناس أبدا.. يجعل ذلك فى نفسه

أثرا عظيماً.. أخذه والدى معه إلى دار مريض فلما رآه بكى بشدة.. ومن يومها يكره الطب والعطارة.. عرض أبى عليه أن يكون مع عمه.. هو الآن نجار ماهر حقاً.. ولكنى أخشى عليه.. فهو لا يستحى أن يقول فى أولاد الناس ما نخاف أن نقوله.. يكره طغيانهم كما نكره.. ولكن لا يجروء أحد أن يذكر شناعاتهم.. فهو محب للحق بطبعه يكره أن يُظلم إنسان ويسكت عن ظلمه.. كثيراً ما حاولت نهيه عن ذلك.. ولكنه يغلبنى بحجته دائماً.. وأمى تخاف عليه جداً أكثر منى ومن محمود.. فقد انقطع أمله فى الإنجاب تسع سنوات ثم جاء إبراهيم بعد عنت.. كادت أمى تموت عند ولادته.. وبالرغم من هذا لم يكن مدلاً قط كحسونة هذا.. أشعر أن الشيطان تصور فى صورة البشر فصار حسونة هذا.. سمته جدتى هذا الاسم.. وطبعاً طبقاً للطالع وطلاسمها التى تؤمن بها دوماً..

مرت الأيام سريعة.. حتى رأيت رقية قادمة إلى الحانوت.. وللمرة

الأولى قالت:

- خالتى صفية كانت عندنا فى البيت وحدثت أمى..

- حدثتها عن ماذا؟

- تعرف.. (قالتها بحياء وأسف)

- وما رأيك..؟

- الرأى رأى أمى..

قالت ذلك وانصرفت خجلة.. أعلم أنها شجعت نفسها كثيراً حتى

تقدم على تلك الخطوة.. ولكنها كانت اللحظة التى انتظرتها منذ

أشهر.. أى نعيم هذا الذى أنا فيه الآن.. استأذنت أبى الذى أدرك الأمر بفطنته المعهودة.. وذهبت إلى خالتي صافية أسألها عما قالت الست زينب.. فقالت:

- أبشري يا حسن.. بالأمس حكمت لى زينب أن شويكار هانم دخلت عليها وبصوت فيه نبرة الأمر والتعالى.. أن الأتيك على بك الانكشارى طلب يد شويكار وأنا وافقت على الخطبة.. قالتها وانصرفت دون أن تسمع رأى زينب حتى..
- أحقا هذا؟

- نعم يا بنى.. اشتكت لى زينب من شويكار هانم كعادتها.. وطغيانها على رأيها دوما..
- هل حدثتها بالأمر؟..

- نعم ألمحت لها.. ما رأيك أن يكون الفرحان معا.. رقية وشويكار
- هل هذا رأى خالتي زينب؟
- لا.. فقط أردت أن أقترح عليك..

- ليس عندي مانع ولكن هل ترضى شويكار هانم بذلك؟
- أسأل زينب إذا.. ستزورنى غدا.. وسأدبر الأمر فتقابل فتحية...
- اللهم سترك ورضاك..

- لا تقلق يا حسن دع الأمر لخالتك صافية..
- وجدتي؟
- جدتك تحب زينب.. وتعرفها جيدا..
- إذا لم يبق غير شجرة الدر..

– من شجرة الدر هذه؟

– لا عليك يا خالة.. أبدا.. أستأذنك..

أسرعت إلى الحانوت لأخبر أبي عما حدث.. ولما حكيت له الأمر..

قال إذا أكلم منصور بك عن أمرك.. حتى لا يقول طغى رأى النساء..

ولكن رأت أمى غير ذلك فقالت له اصبر حتى تعرض زينب عليه الأمر..

كان ذلك بعد اللقاء المنتظر.. وهكذا رأى أمى فى زينب.. إنها امرأة

بسيطة طيبة.. لم يغيرها حال زوجها الأول.. هكذا قالت.. ثم مالت

على وقالت:

– حقا يا ابن فتحية رقية فتاة جميلة وبسيطة..

– هل رأيت شعرها يا أمى؟

– اختشى يا حسن عيب..

– لا ليس الأمر كذلك.. هل شعرها أصفر؟

– لا شعرها بنى مثل أمها.. (قالتها بابتسامة بدا عليها الخباثة)

– الكذاب..

– من هذا يا حسن الكذاب؟

– أبدا يا أم.. إنه.. إنه.. لا شيء..

– ولكن عينها زرقاء جميلة.. مثل عين أبيها البك سابقا..

اكتفيت بالابتسام.. أعرف أن شويكار هانم تلك سترفض هذا الأمر..

هى تكره خالتي زينب وبنيتها كما كانت دوما تقول.. فقط كل ما أريده

أنها لا توقف الأمر من أساسه.. أو تقنع زوجها منصور بك أن يزوج زينب

لك آخر وليس ابن عطار.. هذا الحوار حكته لى رقية بعد زواجنا...

دخلت أُمى غرفة البك وكانت فيها شويكار هانم تجلس على كرسى خشبى.. فقالت :

- سى منصور بك.. إن رقية جاء إليها عريس..
- عفاريم.. شوكوزال.. رقية بنت جميل (هكذا قال البك منصور)
- شويكار هانم: مين زينب العريس؟
- حسن ابن الحاج عبد الله العطار..
- منصور بيك: زوق.. رجل جميل زوق.. اعرف ربنا..
- شويكار هانم: كيف ترضى زينب.. رقية اتزوج رعا..
- منصور بيك: اسكتى شويكار هانم.. أنا موافق.. زوق جميل مش رعا..
- شويكار هانم: لكن بك..
- منصور بيك: سوس لا لكن أبدا.. شويكار تتزوج على بك الانكشارى.. أنا أكرهه.. هذا أتبك من أتابك ضدى.. أنت وافق عليه..
- أنا أسكت.. لكن رقية لا.. رقية أتزوج ابن زوق..
- زينب: شكرا يا بك.. شكرا جزيلًا..
- منصور بك: اسمعى زينب.. نخلص فرح شويكار.. وابعتى للزوق

يجئى لمقابلتى..

- زينب : شكرا يا بك.. أدامك الله علينا..

فى تلك الليلة ظلت شويكار هانم تصرخ فى وجه البك منصور طيلة الليل.. كنت سعيدة جدا يومها.. فتلك هى المرة الأولى التى يرفض أبى لشويكار هانم طلبًا.. أما أختى شويكار فقد جاءت إلى تبارك ولكن

بكبرياتها المعتادة.. ورأسها المرفوع دائما.. أحيانا كانت شويكار تخجل أن تقول إن أمها زينب ابنة التاجر البسيط.. وكأنها صدقت أن أمها شويكار هانم فعلا.. ولكنها لم تستطع أن تتغلب على ما فى داخلها من مشاعر.. وكثيرا ما يغلبها الطابع المصرى على التركى.. ولكنها تدارى الأمر دوما.. أعرف شويكار جيدا.. أعرف ما تريده.. وأعرف أن بداخلها خيرا وطيبة.. ولكنها تقاوم بكل ما أوتيت من قوة.. أما شويكار هانم فكثيرا ما كنت أتساءل ما سبب كل هذا الكره نحوى.. ماذا صنعت حتى تكرهنى هكذا؟!..!! تعرف منعت أمى من الإنجاب بعدى بدعوى أنها لا تنجب غير بنات.. وكانت تقول أمى إنها كانت تتمنى أن أكون ولدا.. ولكن الله خيب ظنها...

كل ما تمنته خالتي زينب فى الحياة أن تزوج ابنتيها من مصريين من بنى جلدتها.. فقد كرهت حياة الترك وتعقيداتهما.. البساطة أسلوب الحياة المصرية منذ أقدم العصور.. لا يعرف المصرى التكبر أبدا.. بل يرضى بالقليل هكذا كنا دائما يا بنى...

لما عرفت أمى الأمر باركته.. ولم يتأخر أبى فى الأمر وذهب إلى البك فى بيته.. فقابلته أحسن مقابلة.. وامتدحه كما كان يفعل دائما بألفاظه العربية غير المستقيمة «زوق جميل».. مرت الأيام سريعا وزفت شويكار هانم الصغرى لبيت زوجها الذى كان يكبرها بعشر سنوات.. على بك الانشكارى كان أحد المماليك ممن وشوا بمنصور بك.. ولكن شويكار هانم أصرت أن يتم هذا الزواج.. ورفضت كما توقعت اقتراح خالتي صفية.. فهى تنظر إلينا كمصريين بنظرة دونية.. كأغلب الأتراك والجراكسة..

كان إبراهيم يقول دوما.. كيف يدعون خلافة الإسلام الذى ساوى بين الناس ويجعلون من أنفسهم فوق الناس.. بالرغم من أننى كنت أوافقهم الرأى فعلا.. لكنى كنت أنهره خوفا عليه...

تعهد إبراهيم عندما سمع الأمر أن يصنع لى أثاثا كأثاث البشوات.. سعد محمود كثيرا بذلك وكذلك ياسمين.. فهى تحب رقية.. فقد كانت لها أختا تكبرها بثلاث سنوات وماتت فى صغرها من الحمى.. فكانت ترى فى رقية عوضا عن أختها تلك.. خالتي صفية أنجبت الكثير ولكن لم يعيش غير ياسمين وحسونة.. سمعت جدتى تقول إنها حملت تسع مرات.. وبالرغم من ذلك كانت امرأة راضية مؤمنة.. وكانت دوما تدعو أن يعوضها الله ذلك فى الجنة.. وربت ابنتها ياسمين على الخلق والصلاح.. أما حسونة فجدتى كانت تدللها كثيرا حتى فسد.. فعدته خالتي صفية بلاء ودعت أن يعوضها الله عنه بزواج صالح لياسمين.. يكون لها بمثابة الابن.. فكان محمود أختى...

ها هو حلمى يتحقق فقط لم يبق غير شهر واحد حتى تجهز فيه الغرفة كما رتبته أمتى فى خيالها.. ولم أعرف بعد تلك الفرحة فرحة مثلها قط فى حياتى الطويلة...

* * *

(٧)

لكم انتظرت تلك الليلة وجعلتها فى أحلامى .. مر الشهر بطيئاً جداً .. قابلت خلاله للمرة الأولى منصور بك .. كان مرحاً كريماً جداً معى .. حتى إننى شككت فى أمر البكاوية هذه من تواضع هذا الرجل وبساطته .. ربما لم يكن هذا طبعه قبل الزواج بزینب .. بالرغم من سطوة شويكار هانم التى أثرت فيه لدرجة كبيرة فإننى التمسيت فيه روح زینب .. هى كذلك تكن له الحب والاحترام .. عندما سألت أمى لماذا تصبر الست زینب على ذل شويكار هانم أليست زوجته مثلها ولها نفس الحقوق؟ .. قالت لى إننى بدأت أفكر مثل إبراهيم .. عله على حق .. لا بل هو على حق بين لا ريب فيه .. خلق الله الناس كأسنان المشط سواسية .. فلم يجعلوا من أنفسهم أسياداً وعبيداً .. ولكنى فهمت يوماً لماذا يصر الناس على مناداته بلقب البكوية بالرغم من حرمانه منه .. كُنَّ الناس فى صدورهم له احتراماً وتقديراً .. فجعلوا البكوية منحتهم له بدلاً من التى حرمته منه الاستانة فقط تلبية لرغبة شيخ البلد الجديد ..

وبعد انتظار طويل جاءت الليلة الموعودة .. أصر منصور بك على أن تكون احتفالاً كبيراً يحضره سادة الناس .. حتى إنه دعا شيخ البلد نفسه .. بالطبع لم يحضر ولكن كثيراً من الأتابك حضروا .. ومن بكوات البلاد ممن بقى بينهم وبين البك ود .. وطلب أن نرف بعربة على بك النشانجى فوافق على كراهة ذلك .. تزينت يومها بعباءة طويلة أهداها لى أبى كان قد اشتراها من الحجاز .. مزركشة جميلة .. وجلباب أبيض

زين ببعض من النقوش على الصدر.. أما رقية فقد ارتدت فستانا على الطراز التركي استعارته من شويكار أختها.. أو لعلها أهدته إليها قبل أن تذهب لبیت زوجها.. لا أذكر فقط أذكر أنها كانت أحلى امرأة رأيتها.. نسيت في هذا اليوم كل أحزاني وكأن الدنيا انتهت إلى ذلك اليوم.. جهزت الغرفة كما عهد إبراهيم وأمي.. على خير حال.. واشترت أمي سريرًا نحاسيًا جديدًا كالذي أحضرته لمحمود.. أما محمود فقد كان هذا اليوم سعيدا كأنه تزوج من جديد.. قال لي الشيخ مسعود في مجلس العلم عندما فسر آيات المودة والرحمة.. من مات دون أن يتزوج فما زار تلك الحياة أبداً..

في تلك الليلة نمت وكأنني ذهبت بعيدا إلى عالم آخر.. لم أشعر بشيء إلا بحبي الجارف.. وبالرغم من حياثها فقد كنت أشعر من خلاله بالحب أيضا.. في ليلتنا الأولى طلبت إلى عهدا خاصا.. قالت:

- هل تحبني حقا يا حسن؟
- لن أجيب عن هذا السخف..
- بالله عليك..
- أبعد هذا تسألين.. طبعاً أحبك..
- إذا فعاهدني ألا تتزوج غيري أبداً..
- وهل جننت.. حتى أفعل هذا؟!!
- تعرف دوما كانت تدعوا لي أمي ألا تكون لي ضرة أبداً..
- وهل تكره أمك شويكار إلى هذا الحد؟.
- الهانم؟.. لا أبدا بل هي من تكرهها..

- رأيتها اليوم وهى فى ساحة البيت وكأنها ستنشق نصفين من الغيظ..
- لا عليك منها.. دعها وشأنها.. أما طلبى الثانى.. آه.. إذا رزقنا بولد تسميه أنت.. أما إن كانت بنتا فأنا أسميها..
- وماذا تسميها..؟.. شويكار؟ (قلتها مازحا)
- وكيف عرفت؟
- أحقا؟
- نعم..
- تريدان أن تسميها.. شويكار؟
- هذا شرطى..
- بالطبع قبلت.. وهل أستطيع أن أتفوه بعدك أيتها المستبدة؟
- لا لست كذلك.. أنا أحب أن آخذ بالشورى..
- ليتك تحكمن بدلا من شيخ البلد.. كشجرة الدر.. اسمعى إن لشجرة الدر تقديرا خاصا عند أمى حذار أن تتحدثى عنها بسوء أبدا..
- إنها مثل جدتك.. إذا..
- تقصدين أم على..
- نظرت إلىّ بدهشة ثم سرعان ما فهمت الأمر بفطنة وذكاء تعجبت لهما فى حقيقة الأمر.. ولكنه أعجبنى.. نذرت يومها أن أصلى ركعتين صلاة شكر على هذه المنة.. ولكنى نسيت...
- فى اليوم التالى كما كان الأمر يوم زفاف محمود.. جاء المهنتون.. وجاءت خالتي صفية وخالتي زينب.. وجاءت شويكار هانم.. ترتدى

فستاناً رائع الفخامة.. وفي يدها عصا منقوشة تتكئ عليها.. جاءت أمرة
كعهدها بهدية إلى رقية.. وقالت:

- رقية هدية ذهب البسيها في عيد..

وأخذت تسرد في أوامر ووصايات عن الهدية.. لم تطل المكوث..

فقامت من مجلسها ونظرت لخالتي زينب وقالت:

- أنت زينب هيا..

- نظرت إليها خالتي زينب بنظرة تعجب وقالت:

- لا سأظل مع ابنتي يا هانم.. استأذنت البك في ذلك..

أمأت برأسها وانصرفت رافعة رأسها في شموخها المعهود.. جلست

خالتي زينب تحكى عن قصصها مع الهانم.. وبالرغم من كل ما تلاقيه

منها لم ترفع التكليف قط.. ثم أخذت تشتكى إلى رقية حالها من بعد

ما تزوجت وفرغ عليها البيت هي وشويكار هانم.. ثم غلبها البكاء وكذلك

رقية.. شعرت وقتها بالحرَج.. فقررت أن أدعها قليلاً.. وخرجت من

الغرفة إذ بخالتي صفية ومعها الشيطان.. كيف أصرف هذا الوغد..

خطرت لى فكرة سديدة.. أضع له فى الشربات عصير نبتة تسبب

الإسهال.. أمى تستخدمها فهى كثيرا ما تعانى من معدتها.. رحبت به

على غير العادة.. وبالغت فى الترحيب حتى قلت له ساعد لك الشربات

بنفسى.. ذهبت بعيدا وأخذت زجاجة الدواء معى ليكون له داء.. ثم

أحضرت الكوب بيدى وأعطيته.. أما خالتي صفية فكانت مشغولة مع

أمى وخالتي زينب.. بدأ فى قذارات لسانه كالعادة.. ولا يبدو على

وجهى التغير.. بل ابتسم كلما يقول شيئاً ولا أجيب.. وما إن فرغ من

شرب الكوب هذا.. حتى نظر إلى يصرخ ويقول:

- معدتى آه.. إنها تؤلمنى كثيرا..

- كيف هذا يا حسونة..؟

- لا أعرف إنها تتقطع..

- لا تقل هذا يا رجل.. تصبر..

- أين الحمام؟..

- أتريد الحمام؟ لماذا؟

- أية سخافة تقول.. أين الحمام؟

- هناك عند آخر البيت..

ركض إلى الحمام.. وأنا أقف عند الباب أسمع صراخه فى الداخل..

وعندما تأكدت أنه لن ينتهى عن قريب تركته.. ورجعت إلى الغرفة..

رأنى محمود عندما وضعت له الدواء ولكن لم ألحظه.. وفى رجوعى

إلى الغرفة نظر إلىّ وهو يضحك بشدة.. فلم أستطع أن أكتم ضحكى

أنا أيضا.. ثم انصرفت إلى الغرفة ودخلتها وأنا أضحك.. سألتنى أمى:

- مالك يا حسن.. اللهم اجعله خيراً.. لم هذا الضحك؟

- قلت لها أبدا.. فقط تذكرت شيئاً..

- أين حسونة؟

- إنه فى الحمام (قلتها متماسكا)

ثم سمعت صوتاً.. إنه محمود يقول بوصول جدتى.. إنه لأمر

غريب.. أسرع نحو الباب وقبلت يدها كعادتى.. أتى معها عمى

مالك.. وجلسنا معاً فى ساحة البيت نأكل.. ونتسامر كأنه العيد..

كان يوماً جميلاً وأجمل ما فيه أنه بلا حسونة.. فلقد قضى طيلة اليوم

فى الحمام.. حتى نسوه وانصرفوا فى آخر الليل.. أما هو فغلبه النوم ولم نعرف بوجوده إلا بعد العشاء بعدما انصرف الجمع.. سمع أبى صراخه.. فعلم الأمر فأتى له بدواء للإسهال.. شربه وانصرف إلى بيته.. مازلت أضحك كلما ذكرت ذلك اليوم...

فى تلك الليلة جلست معها أحدثها عن الشعر.. عرفت أنها لم تحظ بتعليم كأختها.. ولكن حرمتها شويكار هانم من ذلك.. حتى تتفرغ لشئون البيت.. ولكنها على أية حال راضية بذلك.. فكنت أفسره لها وأشرح لها المعانى.. من شعر الأندلس الغابر.. كانت تطرب إليه.. وللمرة الأولى أعرف معنى السمر.. لا مثل ما كان يدور بينى ومحمود أو إبراهيم من كلام خشن يخلو من هذا الشجون.. عرفت معنى ألا تكون وحيدا فى شجون.. معنى المودة والرحمة... السكن والأنس بالحبيب.. ثم قال:

- قل لى يا بنى.. هل تزوجت؟
- لا..
- وكم عمرك..
- ستة وعشرون..
- لا.. اصدقنى القول..
- أنا أصدقك القول.. والله..
- وكيف هذا؟.. لم لا تتزوج..
- دعنا لا نتحدث فى هذا الأمر..
- هل أنت مريض؟

- لا يا شيخ.. لست مريضا.. ولكن الأمر تبدل..

- كيف؟

- اسمع يا شيخ.. فلنكف عن هذا من فضلك.. فلأمر عندنا

حسابات أخرى..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كما تشاء..

قسمت أمى الأدوار ما بين رقية وياسمين بالنسبة لشئون البيت..

ولم يخل الأمر من بعض التحكمات.. هكذا هو شأن النساء.. ولكن رقية

امرأة عاقلة.. أو لعل أمى مهما صنعت فلن يكون مثل ما كانت تصنعه

شويكار هانم.. فرضيت بالأمر وتعايشت معه.. أما ياسمين فكانت كثيرا

ما تشكو لمحمود.. ولكن محمود لا يملك أن يواجه أمى.. فتشكو إلى

خالتي صفية.. فتقول لها يا بنيتى لا تكونى شكاءة.. انظرى إلى رقية

كيف تفعل.. هذا أعلى من شأن رقية على ياسمين عند أمى.. وجعل

بينهما بعض الغيرة.. ولكن سرعان ما ينصلح الأمر بين رقية وياسمين..

فتغلبهما عشرة الأيام فتتصالحان...

يوم الخصام الكبير الذى وقع بينهما.. رأيت دموع رقية للمرة الأولى..

دخلت الغرفة فوجدتها تبكى وتنتحب كالأطفال.. اقتربت منها حثيثا..

ودنوت من أذنها وقلت لها:

- هل سقطت الشمس من السماء.. حتى يبكى هذا القمر؟

- لم تجب عن السؤال.. نظرت إلىَّ بعينها الدمعة.. سماء زرقاء

ملأتها قطرات المطر.. أسقطت رأسها على صدرى.. شعرت أن جزئى

المفقود قد رجع إلىَّ بعد غياب.. بهذا أشعر بمعنى الحياة.. فجعلت

أمسح على شعرها.. حتى هدأت.. ثم رفعت رأسها وبدأت فى الاعتذار عن البكاء..

– هل أزعجك الأمر؟

– لا بل كنت سأطلب منكى أن تبكى ثانية..

نظرت إلى بابتسام وهى تمسح دمعاتها.. ثم انتبهت إلى يدها حيث نسيت فحل البصل والسكين.. فأردت أن أهون عليها بدعابة..

– هل كان بكأؤك من هذا البصل؟

قامت من فورها.. وهى تضحك وتقول:

– لا فقط نسيته.. سأذهب أكمل الطعام..

فى تلك الليلة بدا على ياسمين المرض وشحب وجهها.. كان هذا بادرة خير وأمل.. فبشرت أمى محمود أن زوجته حامل.. جرت رقية ونسيت كل فعلات ياسمين وصراخها فى وجهها الدائم.. تبارك لها.. هكذا كنا يا بنى.. الأمور بسيطة.. يسرنا على أنفسنا فيسر الله علينا الدنيا والآخرة...

مرت أشهر.. ولم يجعل الله لنا نصيبا فى الخلف بعد.. وعندما لاحظت أمى ذلك.. قلت لها ما لك يا أم أليست الأرزاق بيد الله؟.. فامتنعت عن الخوض فى هذا.. وضعت ياسمين طفلا سماه أبوه عبد الله.. على اسم أبى.. خيراً فعل محمود لو كنت مكانه لفعلت...

اقترب ميعاد الخروج للحج.. أعد أبى عدته وحاول أن يمنع جدتى أن تكون معه فى تلك الرحلة فأبت إلا أن تذهب.. جمع أبى المال.. وقال أقسم بينكم بالعدل هذا.. فإن مت فقد أبرأت ذمتى منكم..

تساءلت لم تلك المرة التى يفعل ذلك.. لا أعرف ربما ليجعل لنا أمنا بعد الزواج.. ثم أوصى من بعد ذلك وقال: أما عن الحانوت فهذا بينكم فإذا أدركنى الموت.. فبينكم بالعدل لا يطغى أحدكم فأعذب فى قبرى بذلك.. قاطعته أمى:

- أطل الله بقاءك يا أبو محمود.. لا تقل هذا..

- يا أم محمود ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان الآية ٣٤) (قالها شارذ النظر)..

نظرت إلى وجه أمى وقد تغير.. كأنها تخشى شيئاً.. ربما على جدتى فهى امرأة هرمة.. قد ضعفت وطحى عليها الكبر.. سمعتها كثيراً تحذره من أمر سفرها.. هل تعاود التحذير.. ولكنها لم تفعل.. ربما يكون هناك أمر بينهما لا أعرفه...

جاءت ليلة السفر.. نظرت إلى رقية نائمة.. كأنها ملاك.. ولكن يبدو على وجهها الشحوب والتعب.. نعم أرهقت نفسها إلى جوار ياسمين.. ولكن جبينها يتصبب عرقاً.. حرارتها مرتفعة.. ناديت أمى وأخبرتها بالأمر.. خرجت من الغرفة وتركتها مع أمى.. ثم قالت:

- مبروك يا حسن.. رقية تحمل طفلاً..

- أحقا يا أمى؟

- نعم.. إنها البداية..

- رقية: أريد أمى يا حسن.. أنا مريضة وأحتاج إليها..

- نعم.. فى الصباح سأذهب أودع والدى والجدة وأرسل فى طلبها..

غمرتنى سعادة من نوع آخر.. سعادة أن تكون أبا.. رأيت تلك السعادة من قبل فى وجه محمود.. ولكن الشعور بها مختلف.. لم أدرك الأمر فى أوله.. ولكنى أحاول أن أتفهمه..

فى الصباح طلعت قافلة الحج والتجارة للحجاز.. أعدت العربات والخيول والجمال.. وانطلقت الرحلة راشدة.. بقيادة إسماعيل بك الخازندار أمير الحج.. وقبل الانطلاق قال لى أبى:

– أمك أمانة عندك يا حسن..

– لا أفهم يا أبى.. أمى فى بيتها مكرمة..

– ستفهم فى حينه..

– سأفتقدك يا أبت..

– وأنا أيضا.. ولكن اعلم أن اللقاء قريب مهما طال الزمان.. أستودعك

الله الذى لا تضيع عنده الودائع..

هكذا كانت كلمات أبى قبل الرحيل.. قبلت يد جدتى.. ثم انطلقت

الرحلة إلى الصحراء.. تقبل الله منهم.. الآن أنادى خالتى زينب.. ذهبت

إلى البيت.. وجدت عربة يجرها الخيل وعليها حوارنى أو عربجى كما

كانت تقول شويكار هانم.. طرقت الباب.. فتحت خالتى صفية..

– أهلا يا حسن تفضل..

– لا يا خالة يجب أن أسرع فلم أفتح الحانوت بعد..

– خيرا يا ولدى..

– رقية حامل..

– حقا.. الحمد لله استجيبت دعواتى.. مبروك يا حسن..

- بارك الله فيك.. هي تريدك.. يبدو عليها التعب..
- نعم.. سأذهب عندما تنتهي شويكار هانم لتجهيز نفسها.. ذاهبة لزيارة شويكار الصغرى..
- وهل تذهبين معها؟
- لا.. كنت هناك بالأمس.. لا أحب زوجها هذا.. متكبر..
- لا عليك يا خالة.. يهدى الله عباده إن شاء..
- نعم.. ونعم بالله.. لن أتأخر يا بنى.. سألحق بك..
- نظرت إلى الداخل فإذا بشويكار هانم تقف متكئة على عصاها المنحوتة.. فأستأذنت خالتي زينب وأسرعت فى الانصراف..
- مرت بعدها شهور.. وصلت إلى الحانوت وجدت شاكر صديقى القديم.. منذ كنا فى الكتاب معا.. شاكر مولع بالأخبار والقصص.. يحفظ الكثير منها ويعرف من أخبار التاريخ.. لذلك يبدو عليه الوقار بالرغم من أنه حداد.. كان يهتم بهندامه ومظهره الأنيق.. ويضع العطور.. أجد فيه الأخ والصديق نجلس ساعات فى الحديث ولا نمل..
- هكذا بدأ الحديث بيننا..
- أين أنت يا رجل منذ تزوجت وأنا لا أراك أبدا.. هل شغلتك العروس عنا؟
- لا أبدا.. اجلس يا شاكر..
- شكرا.. هل علمت بما حدث البارحة؟
- أى أمر هذا؟.. أى خبر عن محمد بك جركس.. على كل حال فلقد هرب من مصر..

- لا هذا الأمر فات عليه شهر يا حسن.. ألا تعرف؟!.. لا حديث
للعمامة غير هذا..

- أى شىء جديد؟.. علك تقصد انتهاء الرياسة فى يد ذى الفقار
بك وعلى بك الهندى..

- أى عار هذا الذى نحن فيه.. يحكمنا هندى!!

- هل تعرف أنت أن محمد بك قطامش جاء مصر من الديار الرومية..
ولم يتمكن من الدفتردارية.. بسبب هذا الهندى..

- نعم عرفت هذا من إبراهيم أخيك.. لكن ما قصدته ليس هذا..
بالأمس اجتمعت القاسمية عند محمد بك أبى العذب.. ولعبت الخمر
بعقل مصطفى بك ابن أيواظ.. فتلفظ بأشياء مخجلة.. وقال يموت العزيز
ويعير الهندى مملوكنا سلطان مصر..

- وهل سمع على بك الهندى بذلك؟

- نعم وصله الأمر وقال إنه قاتله لا محالة يوم جير البحر.. أعرف
أنه يدبر شيئاً آخر.. لن ينتهى الأمر أبداً بذلك..

- رحماك يا رب.. أية غابة تلك!!.. ألا تكف أيدى هؤلاء من الدم؟
- من عرف طعم الدم لا يدعه أبداً يا حسن..

- نعم..

- ألا توجد أخبار عن قافلة الحج بعدما رجع إسماعيل بك وتولاهما
عبد الله بك؟

- لا.. أبداً.. من المنتظر أن تصل القافلة الشهر القادم..

- تصل بأمان الله..

- ستصل بعدما أصير أبا.. فأمى تقول إن زوجتى أوشكت على الولادة..
- مبارك لك يا حسن..
- بارك الله فيك..
- استأذنك.. أتفقد الورشة.. قرب أذان العصر..
- تفضل..

على هذه الحال يكون حديثى مع صديقى القديم.. فى هذا اليوم فى الليل رأيت رؤيا غريبة.. أتى أبى الحاج عبد الله يرتدى لبس الإحرام.. ويحمل طفلا على يده.. وقال: مبارك لك يا حسن ما رزقك الله.. اعذرنى يا بنى على أن أذهب.. قلت: إلى أين يا أبت.. فقال: جدك ينادينى.. وانصرف عنى بعدما أعطانى المولود فى يدي.. ناديته حتى أسأله عن جدتى فلم يجب.. استيقظت فإذا بأذان الفجر يرتفع من مسجد الحسين.. قمت من فورى لأتوضأ.. عله خير.. أخشى على الجدة كثيرا.. سترك يا ستير.. فى الصباح جلست للفتور.. وحكىتم لأمى الرؤيا.. نظرت إلى بدهشة.. ثم قالت:

- لا تخبر أحدا يا حسن بتلك الرؤيا..
- خيرا يا أمى..
- رأيت رؤيا أخرى.. جدتك تسير فى صحراء متعبة ويتصبب من جبينها العرق.. ثم استأذنها أبوك وقال أذهب أنا يا أم.. فقد حان الميعاد.. وانصرف عنها وظلت تسير فى الصحراء والشمس تحرقها.. حتى سقطت أرضا...

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا لله وإنا إليه راجعون..

سمعت صوت صراخ شديد من غرفتي.. إنها رقية.. قمت من فوري نحو الغرفة في الطابق الثاني.. كنت أصعد السلم فتتعرق قدمي.. وبعد عناء وصلت ورأيت ياسمين وهي تقول نادى القابلة يا حسن.. إن رقية تلد...

صعدت أمي بخطوات واثقة.. ومسبحة طويلة ولم تخلع عنها طرحتها حتى.. وقالت تعجل يا حسن.. ذهبت مسرعا.. فالقابلة الست أم الهنا تسكن آخر قريبا.. في ذلك الشارع المؤدى فى آخره إلى باب زويلة.. ما إن طرقت الباب عليها حتى بادرتنى بقولها نعم أجهز حاجاتى وأتى معك.. لا تخف يا بنى خيرا إن شاء الله.. أشياء كثيرة تستخدمها.. حملت عنها الأشياء وأوقفت عربة وقلت للحوارنى أوصلنى إلى الحسين سريعا وأعطيك ما تشاء.. وصلت إلى المنزل.. صعدت القابلة بخطى واثقة.. وهدوء تام.. نظرت إلى وقالت أبق أنت هنا.. وأغلقت باب الغرفة.. أجلس أمام الباب على دكة خشبية قد وضعت.. أنظر إلى السماء أدعو.. وأسمع صراخ رقية فيتمزق له قلبي...

خرجت أمي من الغرفة هادئة ثم نظرت إلى مبتسمة ابتسامة هادئة.. وقالت لا تخف يا حسن.. الأمر بسيط.. كانت لا تزال تضع الحجاب الطويل على رأسها.. وممسكة مسبحتها الطويلة.. لم يكسر هذا الهدوء.. غير صوت المولود صارخا.. لم أستطع ساعتهما أن أمسك دمعات عيني الذارفة.. فهمت وقتها لماذا كان يبكي محمود يوم ولدت ياسمين.. خرجت ياسمين حاملة الطفل بيدها.. ثم قالت مبارك لك يا حسن..

– كيف هذا؟

– هذا ما أنا فيه الآن.. (جلست إلى جوارها على السرير.. ووضعت يدي على رأس الصغيرة وتلمست شعراتها التي لا تزال صفراء قليلة) شاهدت ذلك رقية.. بدهشة غريبة.. وكأنها كانت تتوقع مثلاً أن أئد تلك الصغيرة عند ولادتها.. كم هي صغيرة أحلام النساء.. وخاصة في عصر الجهل هذا.. أعرف أن أمي حزينة فعلاً لهذا الأمر.. ولكنني عادة ما كنت أضحك من ذلك.. وأنظر إليها وأقول يا أم «يهب لمن يشاء إنثاً ويهب لمن يشاء الذكور».. عاودت من جديد لومها.. هكذا هي رقية دائماً..

– كفى ما تقولينه هذا.. أَوَ قد عدنا إلى الجاهلية؟.. هذا فضل من الله..

نظرت إلى بعينها التي تأخذني.. وشعرها المنسدل الأشعث في كل مكان.. وقالت:

– مازلت عند وعدك..

– نعم.. هي كما تشائين..

– وأنت ماذا كنت تسميها؟

– إن كان الأمر بيدي أسميتها رقية..

– حقاً يا حسن؟

– طبعاً.. وهل لي أن أقول غير هذا؟

كفكفت دموعها التي بدأت في الانغمار.. رفعت فم الصغيرة عن ثديها.. ثم وضعتها في يدي.. وقالت اختر لها أنت اسماً كما تشاء.. تبسمت وقلت لها:

- ألم نتفق؟

- بلى.. ولكن هكذا أنا.. أرجع فى كلامى دوما..

- تعرفين.. لو أعطيتها إلى أمى فستسميها.. فتحية..

قلتها مزحاً.. ولكن الأمر حقيقى.. أعرف أمى جيداً.. ولكن

سأتحمل ثورتها.. فسرعان ما تخمد.. فى نظرى اسم فتحية اسم

لا يليق بطفلة أبداً..

ضحكت رقية من ذلك ووضعت يدها على فمها حتى تكتم تلك

الضحكات.. كانت إذا ضحكت تضم كتفها.. كطفل يضحك.. ثم قلت :

- إذا هى على اسم الهانم.. ربما تكون هانم فى يوم من الأيام..

- شويكار.. اسم جميل على اسم خالتها..

- بالرغم من أن خالتها خذلتك.. فسمت ابنتها جلبهار.. أى اسم

هذا.. ألم يكن من الأفضل أن تسمها فتحية مثلاً؟

- والله إن سمعتك يا حسن.. فسيصير أمرك إلى القاضى (قالتها

وهى تضحك)

- إذا كيف أخبرها بهذا الخبر.. لنا الله..

خرجت من الغرفة قاصداً أمى التى جلست على المشربية.. عادة

عن جدتى غريمتها أم على حفظتها دون أن تدرى أو لعلها تدرك الأمر

وتنكره.. آه لم أذكر لك.. كان اسم جدتى ياسمين.. وهكذا اختارت اسم

ياسمين أيضاً.. فسيكون الأمر صعباً بالنسبة لى أن أقنعها باسم شويكار

هذا.. جلست إلى جوارها.. وقلت لها :

- كيف حالك يا أم؟

- مالك يا حسن.. آت ما عندك..
- ما رأيك بالمولودة.. أليست جميلة؟
- نعم جميلة مثل أبيها..
- أخجلت تواضعى يا أم..
- ما رأيك يا أم أن تسميها؟
- نظرت إلى نظرة الخبث المعهودة منها.. وأمعنت النظر فى عيني..
- ثم قالت :
- ماذا؟؟.. اخترت اسما لها؟؟
- نعم.. شويكار.. ولكننا سنناديها فتحية..
- ضحكت أمتى.. ضحكة عميقة من القلب.. ثم قالت :
- تعجبني خباثتك يا بن فتحية..
- أية خباثة يا أمتى..
- تعرف.. لم أكن سأختار لها فتحية على أية حال.. فتحية.. هذا اسم قديم.. تعرف.. أنا لا أحب هذا الاسم..
- ولكنى أحبه.. وأحبك يا شجرة الدر (قبلت يدها ومسحت على رأسى وطمنت أن الأمر انقضى على هذه الحال)..
- نعم.. تعرف شجرة الدر.. اسم جميل..
- لا.. شجرة الدر.. حرام عليك يا أم.. وهل هذا اسم؟
- فكر فى الأمر..
- لا.. شويكار أحلى..
- قمت من فورى.. إلى الغرفة قبل أن تصر على هذا الاسم.. ورجعت غرفة رقية.. وقلت لها :

- اختارت أمى اسما آخر للمولودة..
 - أى اسم؟.. فتحية؟؟ (سألت بلهفة)
 - لا بل... بل.. شجرة الدر..
 - ماذا؟
 - نسيت كل شيء من ألم.. وضحكت حتى الدموع.. حتى إن صوت الضحك أيقظ المسكينة شجرة الدر الصغيرة.. فقلت لها:
 - لا.. نامى أيتها المستعصية العظيمة..
 - توقف يا حسن.. أشعر بالألم كلما أضحك..
 - طيب.. أنا ذاهب الآن إلى الحانوت.. عله خير إن شاء الله..
 سأرسل إليك بما طلبت.. هل من شيء آخر؟
 - لا.. شكرا (قالتها كما كانت تقولها عندما تأتي الحانوت طالبة الباخور لأمها.. مع هزة الكتف عادتها تلك التى مازالت تحافظ عليها)..
 ثم قالت:
 - آه.. لا تنس أن تسرع فى طلب أمى..
 - أرسلت إليها منذ باكر ألم تصل بعد؟
 - لا..
 - أومأت لها رأسى وانصرفت إلى الحانوت....

* * *

(٨)

- يوم آخر إلى أفول.. تأخرت قافلة الحج.. عله خير إن شاء الله..
بدأت الشمس في المغيب.. استعددت لأغلق الحانوت.. استوقفتني
شاكراً.. يناديني من بعيد..
- يا حسن.. يا حسن..
- خيراً.. يا شاكراً ما بك؟
- قتل الباشا محمد أبو العزب بك..
- أليس اليوم يوم الديوان؟
- نعم.. خرج الباشا إلى ديوان قيتباى.. وقتله وأخذ كل ما عنده في
الخزائن.. صلاة جنازته في مسجد الظاهر برقوق.. تعال معي..
- هل من أخبار عن على بك الانكشارى؟
- لا أعرف عنه شيئاً..
ذهبنا إلى المسجد وصلينا على هذا الرجل ودفناه في القرافة.. ولكنى
لم أكن مرتاحاً قط.. أحس بشيء في صدرى نحو هذا الرجل.. أما على بك
فعرفت أنه اعتزل في بيته.. فلقد خاف على نفسه من هذا الصراع.. خاف
من مصير منصور بك.. فيسلبونه ما يملك وضيعه.. فيعيش على الكفاف...
هكذا دوماً تصير الأمور عند المماليك.. لا ينفك من صراع حتى يشب
آخر.. وما أن ينتهى من قتل حتى يكون فى آخر.. أصحاب السلطة فى
شغل عن الناس.. كما أن الناس فى شغل عن السلطة.. بسوء أحوالهم
وبالانشغال إلى أرزاقهم.. فيضيع الحق بينهم...

فى عودتى إلى البيت.. وجدت إبراهيم أذى وقد كله التعب.. فسألته :

- ألم تذهب لتصلى على القتيل؟

- وهل مثل هذا يصلى عليه؟!

- الله أعلم..

- ونحن؟؟

- نحن لنا الظاهر..

- وظاهره كان سكيراً يشرب الخمر حتى يسقط.. ويلعب بالحظ

حتى يفلس.. ويجرى وراء النساء والجوارى..

- دعك من هذا الأمر.. ألا توجد أخبار عن قافلة الحج؟

- يقول عمك إنها وصلت إلى العريش منذ أسبوع..

- عله خير..

- نعم.. عله كذلك..

وصلنا إلى البيت.. وجلسنا من فورنا على مائدة العشاء.. ثم ذهبت

أصلى العشاء.. ورجعت إلى البيت حتى أخلو للعب مع شويكار.. بدأ

يستقر شكلها.. تشبه أمها كثيراً.. ولكنها أخذت عنى العين.. ليتها

أخذت عين أمها.. تبارك الخلاق.. وجهها الصغير حين يرانى يبتسم..

تداعب يديها وقدميها طيلة الوقت.. وكأنها تجرى فى عالم لا نعرفه

نحن.. ملئ بالسعادة.. أحب أن أقبل تلك اليد الصغيرة.. وأحملها

إلى فأشعر بالحنان.. لا أفلتها من يدى طيلة وجودى فى البيت.. فقط

لترضع.. ثم أعاود حملها من جديد.. فى الليل عندما تبكى.. أستيقظ

من فورى فتهدأ.. عندما أضع يدى على صدرها الصغير.. تهدأ وتنام..

فى عمر الإنسان هناك أيام تمر سريعاً.. وتنسى حالك فيها.. وكأنك لم تحيها أصلاً.. كذلك كانت أيامى التالية.. لا أذكرها.. فصراع الممالك مستمر.. وصراع الحياة مستمر.. والحب مستمر.. والغدر مستمر.. وكذلك الحال إلى قيام الساعة...

* * *

وصلت القافلة المنتظرة على مشارف القاهرة.. رحلة طويلة وشهور طويلة جداً.. علم عمى مالك بأمر وصول الرحلة.. فأسرع بالخروج إليها.. انقطاع الأخبار عنها لأشهر شىء يثير القلق.. فرحلة الحج القادمة أو شكت على الخروج.. بينما الأولى لم تعد.. أعرف أنهم سيمرون على الشام والعراق ويجوبون الأرض من أجل تجارتهم.. ولكن عشرة أشهر فترة طويلة..

لحقت بعمى إلى القافلة على مشارف القاهرة.. وصلت إلى القافلة ثم سألت أين الشيخ عبد الله العطار.. نظر إلى الرجل الذى سألته.. وقال:

- أنت ولده؟؟

- نعم..

- عظم الله أجرك..

بالتأكيد إنها جدتى.. طالما تمننت أن تموت فى الحج.. غمرت الدموع عيني ولكن سرعان ما استعدت رباطة جأشى وسألته:

- أين؟

- إنها هناك عند تلك الخيمة..

ظننته يشير إلى الناقة.. وجدت محمود يجلس أمام تلك الخيمة..

ويبكى..

- محمود مالك يا أخى؟.. لماذا أتيت إلى هنا؟.. ليس بعادة أن تستقبل الـ.....

- عظم الله أجرك يا حسن مات أبوك فى الحج..
لم أدرك الأمر فى أوله.. فقلت:
- تقصد جدتك؟؟

- لا يا حسن.. جدتك بالخيمة تلك أعياها المرض وطول السفر..
- كيف هذا؟.. لم يكن مريضا.. كان بخير.. كان بخير يا محمود..
- هذا قضاء الله يا أخى لا راد لقضائه..

لم تحملنى قدمى بعد هذا الخبر.. سقطت على الأرض أجلس إلى جوار محمود.. أبكى بشدة وأقول سبحان الله.. وأعيدها.. حتى ربط جأشى.. وقمت إلى الخيمة أطمئن على جدتى.. دخلت الخيمة فإذا بعمى مالك يمسك يدها.. يقبلها.. وهى تخبط بيدها على يديه.. وهى ممددة على الأرض تحتها فراش من صوف أحمر..
- كيف حالك يا جده؟

- الحمد لله يا بنى على كل حال (قالتها بصوت عيى متعب بشدة..
كادت الكلمات تخرج من فمها)

- نعم.. الحمد لله..
- أوصانى أبوك بشئ أقوله لك..
- خيرا..

- يقول لك: إياك أن تترك أرضا عشت فيها.. واصبر على الفتن..
بالطبع لم أفهم وقتها.. قلت لعله مرض قبل أن يموت رحمه الله..
علمت بعدها ماذا قصد.. وكأن الله كشف له عما لا أعرفه وقتها..

سبحان الله.. غريبة تلك الحياة.. لا تستطيع أن تدرك أحوالها أبدا..
فهى بين يد الرحمن يقلبها كيف يشاء.. لكم تمننت جدتى أن تموت
فى الحج.. وخرجت لذلك ولكن شاء الله أن يجعل الأمر على غير
ما أرادت.. خيراً فعل أبى.. دفن فى مدينة رسول الله كان هذا يجعل
من الأمر بردا وسلاما على قلوبنا...

قلت له:

- وكيف صنعت جدتك (عيناي تغمرهما الدموع)

- هذا كل العجب يا أختى.. بعد ما دفنت أبى أكملت الحج.. وأبنت
إلا أن تكمل الرحلة..

- تجوب البلاد معهم؟؟!!

- نعم.. فعلتها وباعت ما حمل أبى معه من بضاعة.. ورجعت
بالنقود.. وبالرغم من الأهوال التى أخرت الرحلة من عواصف الصحراء
والحر الشديد رجعت تسلم الأمانة إلى أهلها.. فكان لعمى نصف هذا
المال.. وكان لنا النصف الآخر.. من كان معها فى الرحلة من الرجال
عجبوا من قوة تلك المرأة.. كانت دوما تقول خلق الخلق من طين.. وصنعت
من الصخر.. الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها تهدى دوما الإنسان
إلى حيث شاء ربه.. عرفت أنها ستموت بعد تلك الرحلة لا محالة.. فهى
الآن مريضة جدا.. وكل ما تتمناه الآن أن تعود إلى بيت عمى.. فتموت
بين أحفادها.. وهذا ما صنعناه.. حملناها إلى بيت عمى مالك...

العجيب كيف تلقت أمى الخبر.. نظرت إلى.. ثم سقطت على
الأريكة التى خلفها.. وقالت:

- كنت أعرف.. كنت أحاول أن أكذب نفسي..
- هدئي من روعك يا أمى (قال محمود)..
- نظرت إلى بدهشة وقالت:
- الرؤيا يا حسن.. الرؤيا..
- نعم يا أمى..
- عرفت منذ هذا اليوم.. ولكنى كنت أخشى أن أقول بشيء فأبشر به..
- رحمه الله..
- رحمك الله يا أبو محمود.. دعونى الآن أريد أن أكون وحدى..
- لن أكذب فأقول إننى لم أسمع بكائها طيلة الليل.. بل كل البيت قد سمع.. جاءت خالتي صفيّة إلى البيت.. وحاولت مرارا أن تدخل غرفتها ولكن دون جدوى.. فاستأذنت لتعود إلى جدتى فترعاها..
- فى الصباح وفد الناس من كل مكان يعزون.. جاء من نعرف ومن لم نعرف.. ولم ينقض هذا الحزن.. حتى اليوم الثالث.. دخل عليها محمود وقال لها يا أمى إن جدتى تريد أن تراك.. دون أن تتكلم ارتدت عباؤها السوداء.. وذهبت مع محمود إلى جدتى حيث ترقد على فراشها.. نظرت إليها وغمر الدمع عينها.. وقالت:
- يا فتحية يا بنتى.. عبد الله جاءنى فى المنام وقال: أخبرى فتحية أننى فى خير مكان.. لا تبكى يا فتحية هذا يؤلمنى..
- أمسكت عينيها من الدموع وقالت لها:
- كيف حالك يا أمى؟

- وفيت وكفيت يا بنيتى.. لا تصدقى أننى كنت أكرهك يوماً
يا فتحية.. فالدنيا هينة يا بنيتى..

- نعم.. نعم..

- احمدى الله يا بنيتى.. وادعى لى الله أن يرحمنى من هذا الألم
والعذاب..

- لا يا أم.. ستصيرين بخير.. سنشرب القهوة على المشربية معاً..

- ليت هذا يكون.. ولكن قرب الأجل يا فتحية..

كانت تلك الزيارة بالنسبة إليها كالماء الذى أخدم جذوة النار
المستعرة.. أى أثر سحرى من تلك المرأة العجوز.. حقا لكى لا يعلم من
بعد علم شيئاً.. أو ربما كما كانت تقول كلما كبر المرء علم أنه أصغر
مما يتوقع...

مر أسبوع واحد فقط.. وجاء حسونة يخبرنا.. أن الجدة قد لقيت
ربها.. كان هذا يوم الجمعة صباحاً.. نودى لصلاة الجنائز بعد صلاة
الجمعة فى مسجد الإمام الحسين.. وصلى عليها خمسون ألفاً.. احتشد
الناس من كل حذب فى المحروسة.. كانت الناس تعجب من هذا
الحشد الكبير.. سبحان الله.. ظلت تلك القصة تروى حتى بعد مماتها
بعشرين عاماً.. أنا أذكر ذلك كنت أسمع الناس يحكونها وكأنها أسطورة
من كتاب ألف ليلة وليلة..

تعلمت من تلك المرأة الكثير.. وتعلمت أن الإنسان العظيم لا يسعى
لأن يكون عظيماً بالقدر الذى يسعى أن يحقق هدفه فى الحياة فيصير
عظيماً.. والحياة دول يا بنى كما أنها لا تدوم أبداً لأحد مهما عمر...

يوم مماتها سمعتها خالتي صفة تقول: أنا قادمة يا سيادة.. قادمة
يا بنت رسول الله.. الحمد لله.. هانت الدنيا.. كم تعبت منها.. أشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله...
كفى حديثا في هذا الأمر يا بنى.. كفى...

* * *

غدا يوم آخر.. اليوم نحن أذلاء.. أما غدا فسيأتى شىء جديد مع باكورة الصبح.. سأبدأ الأمر من هناك.. الإسكندرية بلدة جميلة وجمالها وحشى.. أهلها كرهوا حكم الترك وتحكماتهم.. إلى متى سنكون أسياداً وعبيداً؟!.. لا يا حسن.. لن أظل أخفض رأسى كلما رأيت مملوكاً.. أنا سيد نفسى.. أيجعلنى الله سيد هذا الكون.. وأذل نفسى لهؤلاء العبيد؟!..!!...

كانت تلك محاضرة إبراهيم إلى عندما ناقشته فى أمر سفره إلى الإسكندرية تاركا كل شىء خلفه.. فالإسكندرية سطوة الممالك فيها ليست كالقاهرة.. لطالما كانت الإسكندرية جبهة دفاع عن مصر من ناحية الشمال.. والممالك يخشون من أهلها ثورتهم التى تتكرر كثيراً.. فى عام ١١٤٤ من الهجرة قرر إبراهيم أن يذهب إلى الإسكندرية جاعلاً منها جبهة مقاومة للممالك.. هكذا سماها.. وعندما سألته وأى الممالك تقاوم فهم أكثر؟.. قال ليس على أن أقاوم شخصاً ولكن أنا أقاوم فكراً.. كيف نرضى بأن يظل مصيرنا ومصرنا بيد هؤلاء السكارى... (ذكر الجبرتى فى اليوميات أن فى هذا العام عزل عبد الله باشا وأمراء مصر وتولى محمد باشا السلحدان)

عنفته أسمى كثيراً.. كيف تتركه إلى المجهول.. قالت له: يا بنى إن كنت ذاهباً لتعيش فيها فأنت حر.. أما الذى تحكى عنه فهذا شىء لا أتحملة.. فهؤلاء نزع من قلوبهم الرحمة.. ألا ترى ما يفعل بعضهم

ببعض.. فكيف بك وأنت من العامة يا ولدى.. وكان رده أنه ليس وحده بل معه الكثير.. وأنه ذاهب مع الشيخ عبد الغفار القاضى.. التفت محمود إليه وقال:

- الشيخ القاضى؟

- نعم.. هو يا محمود..

- قالت: أمى

- تعرفه يا محمود؟

- محمود: هذا أستاذى يا أم.. رجل صاحب علم ومقام.. ولكنى أخشى

عليك يا إبراهيم فالماليك لن يدعوه أبدا.. فكثيرا ما كان يعترضهم...

- هذا قرارى يا شيخ محمود.. لن أتراجع عنه..

كان هذا آخر قوله.. وانصرف عنا.. وقبل الفجر أعد عدته وخرج

من فوره.. أحسست به قبل أن ينصرف.. قمت من فورى.. وجدته فى

مدخل البيت يجهز نفسه...

- إبراهيم؟

- حسن؟

- هل عزمت الرحيل؟

- نعم.. توكلت على الله..

- اسمع يا إبراهيم.. لقد صرت رجلا ومسئولاً عن نفسك.. ولكنك

كنت لى بمثابة الولد.. أتذكر يوم كنت تلعب مع الأولاد وسقطت على

الأرض وكادت عربة الباشا تدهسك..

– نعم يا حسن.. يومها رميت نفسك فوقى وسحبتنى بعيدا (قالها
وعيناه تذر فان بالدموع)

– أمك يا إبراهيم.. تخاف عليك..

– أعرف هذا.. والله أعرف.. ولكن أنا ذهبت جهادا فى سبيل الله..
ثم أنشد بيتين للإمام الشافعى :

سأضرب فى طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت غريبا
فإن هلكت نفسى فله درهمها وإن سلمت كان الرجوع قريبا
– إذأ عدنى أن يكون الرجوع قريبا..

– إن شاء الله.. أعدك..

– أستودعك الله يا ولدى.. فلا تضيع عنده الودائع أبدا..

نظر إلى نظرة أخيرة وعيناه تذر فان بالدمع.. حتى بلت لحيته
الصغيرة التى بالكاد نبئت متأخرة.. وانصرف.. كان هذا مفعجا بالنسبة
لأمى.. ولكن ماذا عليها أن تصنع سوى الدعاء.. إبراهيم عنده الحق فى
كل كلمة.. والشيخ عبد الغفار رجل صالح ومعلم جليل.. عينه محمد بك
بن أيواظ قاضيًا للقضاة.. ولما حكم بين الناس عدل فصار الناس يلجأون
إليه فى شئونهم.. فعلا صيته بينهم.. فخشى محمد بك من ذلك.. فدبر
له مكيدة بأن أرسل إلى السلطان فى الاستانة.. يوشى بأحد الرجال فحكم
عليه السلطان بالإعدام.. ولكن القاضى رفض هذا الحكم.. فقد تبين له أن
الرجل برىء من تلك التهمة الشنعاء المنسوبة إليه.. فلما فعل ذلك عزله
محمد بك من منصبه.. فصار يعلم الناس فى الأزهر.. ويبين لهم الحق
من الباطل.. وأن الناس سواسية كأسنان المشط.. ويبين لهم ظلم الممالك

ومجونهم.. فصاروا يضيقون عليه خاصة.. عندما كثر أتباعه وكان منهم
أخى إبراهيم.. يحضر مجلس علمه وينهل من علمه.. فلما ضيقوا عليه قرر
أن ينطلق إلى الإسكندرية وتبعه كثير من مريديه إليها ومنهم إبراهيم...
كان وقع هذا الرحيل على أمى صعبا شديدا.. مرضت بعدها مرضا
شديدا وكانت خالتي صفيّة تزورنا كل يوم تقريبا حتى تطمئن على
صحتها.. ولكن بعد مدة شفاها الله واستجاب لدعائنا.. ولكن لا يزال
يعاودها الحزن.. كلما ذكر أحدنا إبراهيم.. أو تذكرت أنه لن يعود إلى
البيت.. كانت دوما تقول: ليته تزوج قبل رحيله حتى.. كنت أتمنى
من الله أن أرى له ولدا...

ذات ليلة.. دخل محمود علينا وفي يده ورقة.. قال:

– يا أمى.. إبراهيم أرسل خطابا.. جاءنى اليوم أحد من أصدقائه
وقال هذا منه..

نظرت إليه أمى.. متشككة فى الأمر.. مرت خمس سنوات ولم يرسل
بشىء.. كانت تخشى أن يكون محمود من كتبه.. عندما أرفق بحالها..
ولكن أقسم محمود لها أن هذا ما حدث.. وأن إبراهيم أرسل هذه
الرسالة.. ثم قرأ الرسالة...

أمى الحبيبة.. عز علىّ فراقك يا أم.. ولكن الأيام ستثبت أننى كنت
محقا عندما تعود مصر حرة وليست أسيرة لعبيد.. بلا ظلم.. أرسلت
إليك هذا الخطاب أبشرك بخير خبر.. لقد تزوجت يا أمى وأنجبت
طفلا.. أسميته حسن.. أنا سعيد فى الإسكندرية.. فهى كالعروس زينها
البحر.. سلامى إلى محمود وحسن وياسمين ورقية.. وكل من عندك..
وسأرسل إليك كلما سنحت الفرصة.. ابنك إبراهيم بن عبد الله العطار..

كانت تلك رسالته القصيرة.. كانت بردا على قلب أمى.. بالرغم من شكوكها التي ظلت قائمة.. حقا هي لا تقرأ الكلام.. ولكنها تجيد قراءة العين.. بارعة الفراسة تعرف ما تريد قوله حتى قبل أن تنطق به.. وبعد تكرار قسمات محمود لها.. وأن الخطاب أرسل على اسمه فى الأزهر الشريف.. صدقت الأمر.. وكانت تسأل محمود كل يوم تقريبا هل أرسل أخوك خطابا؟...

فى تلك السنوات رزقنى الله بفيروز وفتيمة وإبراهيم أسمته أمى.. ليكون على اسم عمه الغائب الحاضر.. كان فى ذلك تسليية لحزنها.. وأنجب محمود عبد الرحمن وعمرو وعلى وفاطمة.. لذلك اختارت رقية فتيمة.. حتى لا يختلط الاسمان معا...

مرضت رقية بعد مولد إبراهيم.. كادت تموت وهى تلده.. ولكن الله سلم.. يومها كاد عقلى يطير.. دعوت الله أن يشفيها كثيرا.. كنت أجلس إلى جوارها طول الليل أقرأ القرآن وأدعو وأبتهل.. استجاب الرحمن لحالى.. فهو أعلم كيف أكون بدونها.. ستعرف يا ولدى يوما ما أعنيه.. أنا لا أتحمل أن أعيش بدون تلك اليد الرقيقة تحبب على ظهري فى الشدائد.. هذا الأنس الذى تلجأ إليه فى وحشة الليل.. عانيت من الوحدة ومن فراق الأحبة بعدها.. وهذا يا بنى عذاب الدنيا بل أشد العذاب...

كنت أحفظ الشعر حتى أقوله لها.. كانت تطرب لذلك.. كالطفل الذى يفرح بلعبة جميلة.. كانت تحب الموشحات الأندلسية.. قالت لى فى يوم:

- تعرف يا حسن أتمنى أن أذهب معك إلى الأندلس..
- أبعد زوالها يا رقية؟!
- لا.. هذه أمنية.. نجلس في حدائقها وتغرد لنا الطيور كما كانت تفعل ل..
- ابن زيدون..
- نعم.. هذا..
- بل تكونين أنت ملكة مثلاً.. ملكتى الجميلة.. وأنا ملك فيها..
- وأخذ اسمى من حروف اسمك.. كما فعل المعتمد بن عباد..
- أو فعل هذا..؟؟
- نعم.. كانت زوجته اسمها اعتماد.. وسمى نفسه المعتمد..
- وأنت.. أسمى نفسى الرقى مثلاً..
- ابتسمت ابتسامتها المعهودة.. وسرحت فى سماء عينيها كالعادة وأنشدتها هذا:
- أيا لك نظرة أودت بقلبى وغادر سهمها قلبى جريحا
- فإما أن يكون بها شفاى وإما أن أموت فأستريح
- إياك أن تقول هذا أبدا.. بل يجعلنى الله أموت قبلك بأعوام..
- وأهون عليك أن أكون وحيدا؟
- لا.. ولكنى لا أتحمل الفراق..
- أعرضت عن الأمر.. فلا أحب مثل هذا الكلام.. ولا أحب أن أفكر فيه حتى...

* * *

اعتدت أن أصلى فى رمضان بالأزهر الشريف فأجلس لبعض العلماء
أسمع دروس العلم.. حتى جاء هذا العام.. شاهدت فيه من أعاجيب
عصرنا.. قام رجل فى المسجد وقال:

أيها الناس.. أنا رسول الله.. جئت إليكم لأبين لكم الظلمات والنور
وأهديكم إلى سبيل الله.. جاءنى جبريل ليلة ٢٧ من رجب.. وقال إننى
رسول مرسل إليكم فاتبعونى..

تهامس الناس من حوله.. ومنهم من قال أنه مجنون.. ومنهم من
قال أحقا هذا.. ومنهم من صدقه وقال آمنت بك أيها الغريب.. ثم قام
العلماء من الأزهر يسحبون الرجل من ملابسه وألقوه إلى الشيخ العماوى
شيخ الأزهر فى ذلك الوقت.. فقال:

– ما بالك أيها الرجل؟

– كنت فى شربين.. وجاءنى جبريل وعرج بى إلى السماء ليلة سبع
وعشرين من رجب.. وصلت بالملائكة.. وأذن لى جبريل.. ولما فرغت
من الصلاة أعطانى جبريل ورقة وقال أنت نبي مرسل.. اذهب بلغ
الرسالة واطهر المعجزات..

– أيها المخبول.. أنت مجنون كذاب..

– لا لست مجنونا.. إنما أنا نبي مرسل..

– وأين معجزاتك أيها النبي؟ (سأله باستخفاف)

– سيحدث زلزال عظيم بعد ثلاثة أيام..

– زلزال؟ هاه..

– نعم «إذا زلزلت الأرض زلزالها»..

- قف.. قف.. اضربوا هذا المجنون وأخرجوه من المسجد ولا تجعلوه يدخل إليه أبدا..

بعد هذا بأربعة أيام جاءني شاكر إلى الحانوت وهو غاضب..

- مالك يا شاكر؟

- جن الناس يا حسن..

- أعلم هذا منذ زمن بعيد..

- تمزح؟!

- وماذا أفعل؟

- مرت على لعنة هذا الكذاب أربعة أيام.. وبالرغم من هذا الناس

تصدقه.. يقولون أن هذا من سيخلصهم من ظلم المماليك

- وهل رجع في كلامه وأجل الزلزال؟

- تمزح مرة أخرى..

- اسمع يا شاكر.. الناس جهال.. لهم العذر.. فالفقر يجعل من الوهم

شيئا يتمناه الجميع.. فيتخلص مما هو فيه من العذاب وشقاء الحياة..

- تعرف.. أرسل إليه عثمان كتخدا..

- وماذا سيصنع به؟

- لا أعرف.. هل تظن يناصره أيضا..

- لا طبعاً.. سيرسله للمارستان..

كان هذا أقل ما يفعل.. ثم مر يوم آخر فوجدنا جمعاً من العامة

من جهال وفقراء أضناهم الفقر.. يجتمعون عند المارستان ليخرجوا هذا

الرجل.. فأخرجوه.. وأخفاه الناس عن الأعين.. حتى طلبه الباشا

فظهر.. فكان منه مثل قوله الأول.. فأمر بحبسه فى العرقانة ثلاثة أيام.. فلم يغير قوله.. فجمع له العلماء عليه يتوب.. فلم يغير.. فأمر بقتله وقال له: إن كنت صادقاً فخلص نفسك من هذا.. فقتل وهو يقول: اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.. ثم ألقوه بالرميلة ثلاثة أيام جثة... ثم أخبر هذا المدعى أنه إن قتل فسيكون يوم القيامة يوم السادس والعشرين من ذى الحجة.. وكان يوم جمعة فصدق الناس هذا.. فخرجوا يودعون بعضهم البعض.. ويعدون الأيام الباقية لهم فى الدنيا.. ومنهم من خرج يشرب الخمر فى المتنزهات ويلعبون الحظ قبل فوات الأوان.. ومنهم من تاب عن ذنوبه وقام الليل وأخذ يدعو الله أن يغفر له.. كان من هؤلاء أُمى.. بالرغم من قسمات محمود لها بكذب الرجل.. فإنها أبت إلا التصديق.. وجاءنى شاكر وقد اعتلاه الحزن والبؤس الشديد.. فقال:

– باقى يومين يا محمود..

– يومين؟!!!.. هل أنت مسافر؟

– تمزح ويوم القيامة بعد غد..

– بل سأمزح ويوم القيامة الآن..

– أستغفر الله العظيم.. أغلق الحانوت يا محمود واذهب وصلّ

واستغفر الله..

– لا حول ولا قوة إلا بالله..

– هل تظننى جننت..

– نعم بل تأكد لى الأمر..

– إذا جننت أودعك.. وأدعو الله أن يهديك سواء السبيل..

- يا شاعر الرجل كاذب.. مرت أشهر ولم يحدث أى زلزال قط
وكذلك يوم القيامة هذا...

- لا تقل هذا يا حسن.. عليك أن تبجله.. أسأل الله ألا تموت على هذا..
- انصرف يا شاعر.. الآن.. ونتقابل يوم السبت إن شاء الله..

انصرف شاعر.. وهو يدعو الله أن يهدينى إلى سواء السبيل كما يقول..
أما رقية.. فقالت بفطرتها.. وإن كان يوم القيامة غدا.. فماذا نصنع..
المهم إننا سنموت معاً.. أنا أصلى ولا أفعل ذنوباً أو ما يغضب الله...

أما عن خالتي زينب وخالتي صفية.. فلم تختلفا عن أمى كثيراً..
فخالتي صفية تصدقت بكل ما عندها من ذهب أو طعام فى البيت..
وخالتي زينب تركت كل شىء من يدها.. وجلست تقرأ القرآن.. أما محمود
فكان لا يكف عن الضحك أبداً كلما جاءه أحد يسأل عن يوم القيامة..
فيقول: لم يخبر به الله رسوله وأخبر هذا المجنون.. أى خرف هذا؟!!

مر يوم الجمعة بسلام.. والناس فى بيوتهم يرجفون.. استيقظت
صباحاً وفتحت الحانوت.. ولكن الشارع قد حوى إلا ممن كذبوا هذا
المدعى.. جلست أمام باب الحانوت وقد سطعت الشمس فى السماء
وهبت ريح خفيفة كالنسيم.. لم يأت واحد يطلب شيئاً فى هذا اليوم
قط.. أغلقت الحانوت بعد المغرب كعادتى.. وعرفت يومها من محمود
أن الناس معتكفون فى بيوتهم وبعضهم فى المساجد.. وفى اليوم التالى..
بعد الفجر ذهبت إلى أمى فى غرفتها وجدتها تجلس إلى المشربية
وتشرب القهوة.. قلت:

- ما هذا يا أمى.. هل متنا وبعثت تشربين القهوة؟!!

- لا أيها الشقى لم يحدث شىء.. (قالتها بابتسامة صفراء)
- لا تقولى هذا يا أمى.. بل نحن متنا..
- كف يا حسن عن هذا..
- عليك الآن أن تتوبى من ذنبك يا أم.. أتصدقين مجنوناً؟
- أستغفر الله العظيم وأتوب إليه..
- هل نفطر اليوم.. أم إن الأموات لا يأكلون؟
- قامت من مكانها خلفى.. تريد ضربى بالقبقاب.. جريت منها كما كنت أفعل وأنا صغير.. وأصرخ وأقول:
- ما بك يا أمى.. هل أشبه شجرة الدر إلى هذا الحد.. فأقتل بالقبقاب؟! وهى تضحك.. وتلحقتنى على مهل.. فقد بدأ الهرم يسدل عليها أستاره.. وضعت ساقها فصارت تسير على مهل.. استيقظ البيت على هذا المشهد.. وضحك الجميع.. ثم قال محمود: أمسكه لك يا أم مثل سابق عهدنا...
- أعددتنا الفطور.. وكانت أسعد الناس يومها رقية.. فدنت منى وقالت جعل الله لنا أياماً أخرى يا حسن.. ضممتها إلى صدرى.. وقبلت رأسها ونسيت العالم من حولى.. فنظرت إلى أمى بعينها على ألحظ.. ولكن لم يقطع هذا.. غير نحنحة محمود التى ارتفعت.. بابتسامة خرجت من البيت بدعوة أمى المعتادة...
- ذهبت إلى شاكر فى حانوته.. فلم أجده.. قلت أنتظر حتى يأتى.. جاء متأخراً يؤخر قدمه عنى.. يحاول أن يتوارى فلا ألحظه.. ناديته بصوت عالٍ.. أيها الشبح السائر هناك تعال.. قال:

- السلام عليكم يا حسن..
- وعليكم السلام أيها الشيخ.. كيف أصبحت؟
- أصبحت تائباً عما بدر منى..
- وهل يتوب الميت.. مضى زمن التوبة أيها الرجل الطيب؟
- كفك يا حسن.. غرنى الشيطان..
- أتشرب القهوة؟.. أم أنك فى الجنة تطلب ما تشاء.. أما أنا فمسكين ما زلت فى الدنيا..
- وهل فى الجنة يشربون القهوة يمنية أم تركية (قالها ضاحكاً)؟!
- نعم.. نسى أن يقول لنا رسول الله الذى هو من شربين هذا قبل أن يقتل.. بالحق يا شاكر.. أ كنا سنحج إلى شربين.. وتصيح شربين المنورة؟!
- فى غمرة الضحك الذى انتابنا.. نادى منادٍ أن الشيخ فلان يقول إن الأولية شفَعوا لنا ليؤجلوا القيامة.. نظرت إلى شاكر وقلت له:
- على ما يبدو أن الجمعة لم يكن مناسباً للأئمة.. ربما يوم الثلاثاء..
- إذًا بقى ثلاثة أيام يا حسن (قالها مازحاً)..
- عد أيها المخبول إلى حانوتك.. هيا..
- كان الأمر بالنسبة لى أرضاً خصبة للمزاح والضحك...

* * *

بين الحين والآخر تذهب رقية لزيارة أهلها.. وأحيانا قليلة تزور أختها شويكار.. خاصة بعدما اعتزل زوجها السياسة.. حكم على نفسه ولم ينتظر أحدهم ليحكم عليه.. فيعزله كما ساعد هو فى عزل منصور بك من قبل.. كثيرا ما يكون هذا هو الحل الأفضل بالنسبة لرجل علم من شئون السياسة ما لا يعرفه غيره.. هكذا كانت دوما تقول شويكار.. وتحمد الله أنه لم ينتظر حتى يعزل مثل أبيها فيعانى من ذلك أولادها.. الزواج غير شويكار.. جعلها تعود لأصولها المصرية أو تحن إليها بعض الشيء.. وتتجرد مما ألبسته عليها الهائم من تقاليد تركية.. فصارت تتلف كثيرا لأن تعود إلى بيت أبيها.. فكلما حانت لها فرصة تهول لبيت أبيها.. تتنسم منه ما فقدته فى بيت زوجها.. فالانكشارى رجل غليظ.. لا يعرف كيف يتعامل مع الناس.. فنظرته التعظيمية لذاته صورت له أنه فوق كل هؤلاء الشرادم.. حتى فوق زوجته التى كان دوما يسبها بمصرية أمها.. مما جعلها ترتد لمصريتها مردا جميلا.. فعلى عكس سابق عهدا.. كانت تجلس إلى أمها زينب تاركة الهائم فى عالمها التركى الخاص.. أسعد هذا خالتى زينب كثيرا.. جعلها تشعر أن ما سلب منها رد إليها على خير حال.. بل جعل لها قوة على شويكار هانم...

أما منصور بك فقد ضعف.. وبلغ من العمر أرذله.. غير أنه فى آخر عهده بالدنيا.. أحب مجالس العلم.. ومجالس الصوفية يذكر الله فيها..

وكان يجلس إلى علماء الأزهر مجلس الطالب إلى المعلم بالرغم من سنه.. ذكر لي محمود أنه جاء يجلس في حلقة علمه.. فأبى محمود إلا أن يجلس إلى جواره.. فأبى الرجل.. نزل محمود وجلس إلى جواره وأكمل الدرس.. كان هذا التحول في حياة البك منبته موت أبى.. جعل ذلك فيه أثرا عظيما.. أو ربما كان هذا ناقوسا للخطر أدرك منه حقيقة الدنيا...

رجعت رقية وعلى وجهها يبدو الحزن الدفين بعد زيارة أمها.. حاولت أن تخفى ذلك عنى ولكن عشرة الأيام جعلتني أتفهم الأمر..

- مالك يا رقية؟

- أبدا.. أنا بخير..

- لا تحاولي الكذب.. أعرف هذا الوجه.. ما بك؟

- أبى مريض جدا يا حسن.. أنا أخشى عليه..

- لا يا رقية.. أبوك رجل صالح.. لا تخافى.. أنا ذاهب إليه

وسيكون الأمر خيرا إن شاء الله..

أومأت برأسها.. أعرف أنها تعلم أن الأمر قد حان.. فأبوها رجل

هرم.. كادت تخرج من باب الغرفة.. لحقت بها وقلت لا تخافى

يا رقية.. ضممتها إلىّ بشدة.. وهى أسكنت رأسها فى مخدع صدرى..

شعرت حينها بدمعاتها التى انهمرت منها.. وضعت يدى على رأسها..

فسكنت ثم انتفضت وقالت: تأخرت على إعداد الطعام.. فى الصباح

ذهبت إلى بيت البك.. فتحت خالتي زينب وبدا على وجهها الحزن

الشديد.. وقالت: حسن.. كنت سأرسل فى طلبك فالبك يريدك..

دخلت غرفته حيث استلقى على السرير وجلست إلى جواره شويكار

هانم.. غلبها النوم فنامت جالسة إلى جوار مخدعه على كرسيها الفخم وبين يدها عصاها المنقوشة.. دخلت خالتي زينب توقظ الهانم.. فلما أفاقَت نظرت نحوى ثم قامت بثقل من مكانها وقالت :

– منصور بك مسكين حسن.. مريض حسن..

– شفاه الله وعفاه يا هانم..

– آمين حسن.. آمين..

ثم رحلت وهى تبكى من الغرفة وتسندها فى مشيتها خالتي زينب.. وقفت أمام السرير.. أنظر إلى هذا الرجل الذى كان ملء السمع والبصر وهو فى حال يرثى لها.. نظر إلى بعين منقبضة بالكاد ترانى وقال :

– اقترب حسن..

– أفندم يا بك..

– اسمع حسن.. أنا سأموت وأنا سعيد مطمئن على رقية..

– أطال الله بقاءك يا بك..

– لم يبقى كثير حسن.. الموت راحة..

فى الحقيقة كنت لا أعرف ما بالرجل من مرض فلم أرقط مثل هذه الحال.. عله الكبر!.. جلبت معى بعض الدواء المسكن للألم.. وبعضاً من الأعشاب.. أعطيته من هذا الدواء عل الله يجعل فيه شفاء..

فى اليوم التالى.. شاء الله أن يرحمه.. فمات البك منصور وصلينا عليه فى مسجد الظاهر برقوق.. ودفن إلى جوار الإمام الشافعى كما أوصى.. أما عن رقية فقد حاولت أن تظهر قوة الصبر ولكن كانت تركن فى الليل إلى ركن تبكى فيه طويلاً.. ولكن الأيام تنسى...

* * *

لا تبقى الأيام على حال أبدا.. فكما رضيت أمى برحيل إبراهيم إلى الإسكندرية.. واجهت رحيل محمود إلى الصعيد حيث كلفه الأزهر الشريف بمهام الدعوة فى الصعيد.. استدعاه الشيخ العماوى وكلفه بالأمر هذا.. حاول محمود التملص من الأمر ولكن أصر الشيخ العماوى على أن توكل المهمة إلى محمود على وجه الخصوص.. وقال: ليس لها غيرك يا محمود يا بنى الصعيد فقير وفيه كثير من الجهال وتفشت فيهم الخرافات.. سيكون معك الشيخ زغلول صديقك ورفيق دربك.. ليس أمام محمود الآن غير أن يستجيب ويرتحل إلى صعيد مصر ليتولى شئون الأزهر هناك...
جاءنى محمود إلى الحانوت يبلغنى ذلك.. فى الحقيقة هالنى الأمر.. فمعنى ذلك أنه سيرتحل مع ياسمين وأولاده إلى الصعيد.. وبعد الصعيد والمعارك الدائمة بين الصعيد والماليك لا يكفون أبدا مما يجعل الوصول إليه صعبا.. كيف ستتحملى أمى فراق محمود أيضا.. وأولاده.. وهل ستترك خالتى صفية ياسمين تبعد عنها.. تساؤلات حفظتها فى صدرى ولم أبدها لمحمود.. فقط عندما جن الليل أخبرت الأمر لرقية وقلت لها أن تكتم الأمر حتى يفصح به أخى.. وكذلك أخبر محمود زوجته بالأمر.. وقال لها علينا أن نغادر الشهر القادم.. وقد رتب إلينا الأزهر منزلا.. وسيكون معنا الشيخ زغلول وأهله.. لم تستطع حينها ياسمين أن تمسك دموعها التى انهمرت.. وقالت له:
- كيف سأترك أمى وخالتى فتحية.. أما يكفيها إبراهيم.. أنت أيضا يا محمود.. وعمك ماذا سيقول فى الأمر.. لقد هرم وأعياه التعب..
أما فكرت فيهم؟

- كيف لا أفكر فيهم.. ولكن ماذا أصنع؟

- قل له يا محمود أننى لن أستطيع أن أغادر القاهرة وأترك أمى..

اسمع سأتى معك فى الغد أخبره.. ألا يعرف؟!!

- وهل تظنين أننى لم أفعل!!.. قلت له كل ذلك ولكن الأمر فى الصعيد يحتاج إلى العلم.. وهذا ما جعلت له فكيف لى أن أترك ما جعلت له.. اسمعى يا ياسمين.. لو كان بيدى أن أترككم هنا وأذهب وحدى لفعلت ولكن الصعيد بعيدا جدا.. كيف لى أن أترككم هنا فى القاهرة.. فى الصباح.. بدا على ياسمين الحزن وكان يغلبها البكاء أحيانا.. حاولت رقية أن تخفف عنها ولكن دون جدوى.. وبطبيعتها التى تميل إلى الشجون شاركتها رقية الدموع.. دخلت عليهما أمى متكئة على عصاها الخشبية البسيطة وظهرها قد أحناه الزمن.. وضعف بصرها.. ولكنها بالرغم من ذلك لديها من الفطنة ما تدرك به الأمور على حقيقتها..

قالت: ما بكما يا بنات؟

- رقية: لا شىء يا أم؟

- ياسمين: لا شىء يا خالة..

- أمى: أنتم تكذبان.. أخبرانى هل من سوء؟

لم تستطع ياسمين أن تخفى الأمر أكثر من هذا.. كبت رأسها على كتف أمى وبكت بكاء شديدا.. وأخبرتها بالأمر.. نظرت أمى وكأنها لم تدرك الأمر بعد أو عل الصدمة ألجمت عنها الكلام.. ودخلت غرفتها فى عزلتها الاعتيادية عند الحزن.. رجع محمود وعلم بالأمر.. فدخل عليها الغرفة.. وقال:

– ليس الأمر بيدى يا أمى.. كلفنى به الأزهر وليس لى غير هذا..

– أما كفك إبراهيم يا محمود؟

– بالله عليك يا أمى لا تصعبى الأمر على أكثر من هذا.. والله إن

قلبى لينفطر..

غلب محمود البكاء ووضع رأسه على رجل أمى كما كان يفعل وهو صغير.. وأسقطت أمى بعض الدمع من عينها ثم تداركت الأمر بسرعة غريبة.. وقالت: افعل ما تشاء يا محمود حفظك الله يا ولدى.. انكب محمود على يدها وقال: والله يا أمى لو تقدرين على السفر لما جعلتك تظلين هنا أبدا بعيدة عنى.. وضعت يدها على رأسه.. ليهدأ.. فسكن فى حجرها وكأنه طائر عائد لعشه بعد غياب..

مر الشهر سريعا.. كانت أمى تنظر إلى محمود خلال هذا الشهر وتوصيه.. وتطيل النظر إليه وكأنها لن تراه بعدها أبدا كانت تدرك ذلك جيدا.. وتأتى خالتي صفية تبكى.. فتقول لها أمى.. لا عليك يا صفية لعل هذا خير لهم.. ثم تحاول التخفيف عنها.. فتذكرها بالذهب الذى تصدقت به يوم القيامة المزعوم.. فتضحك خالتي صفية.. وتتذكر هذا الأمر وتقول.. ضيعت كل ما أملك فى الوهم.. ثم تعود فتقول عله خير.. فما عند الله لا يضيع أبدا.. كانت لا تذكر ذلك أمام عمى أبدا.. فكلما ذكرت هذا نظر إليها شذرا وقال: امرأة جاهلة.. أما عمى مالك لم يكن لديه أى اعتراض أبدا على سفر محمود.. بل كان يزرع خالتي صفية كلما بكت لفراق ابنتها فيقول لها: اسكتى يا صفية ابنتك ذاهبة مع زوجها.. هكذا هى الأصول...

أنت العربية وأتى معها الشيخ زغلول لتجتمع الأسرتان للارتحال..
وكان وقت الرحيل سريعا.. وقفت أُمى تودع محمود بنظراتها وتوصيه
على زوجته وأولاده.. وأوصته أن يكتب إليها كلما سئحت له الفرصة..
قبّل محمود يدها وقال: إن شاء الله يا أُمى...

كان حاضرا يوم الارتحال حسونة.. تبديل حاله منذ وفاة جدتى
رحمها الله.. ثم لم يلبس كثيرا من بعد سفر محمود حتى عاد إلى ما كان
عليه.. يزور مخادع اللهو فى الليل ويشرب الخمر.. فزاد ما كان فيه
من شطط...

فى تلك الأثناء قررت شويكار هانم أن ترجع إلى الاستانة.. تاركة
مصر بعد وفاة منصور بك.. بعد وفاته رجع عقل تلك المرأة إلى صوابه..
فصارت تتصدق بكل ما تملكه.. وتعامل خالتي زينب بلطف.. كانت
رقية سعيدة بذلك.. ولكن شويكار هانم ستعود إلى الاستانة.. وستكون
خالتي زينب وحيدة فى بيت كبير.. قالت رقية لأُمها أن تقنع شويكار
هانم ببيع البيت الكبير.. وأن تأخذ كل منهما حقها الشرعى.. فتجد
المال الذى تسافر به إلى إسلامبول.. واقترحت عليها أن تأتى لتعيش
معنا فى بيت الزوق.. رحبت أُمى بالفكرة عندما طرحتها رقية عليها
فبعد رحيل محمود وأولاده شعرت بفراغ شديد.. عليها تجد مع خالتي
زينب تسلية لوحدتها.. قسمت خالتي زينب ما حصلت عليه من مال
بين رقية وشويكار بالعدل.. عرضت رقية على هذا المال بدعوى أن يكون
لـ.. رفضت الأمر وقلت لها احفظى هذا المال فهو لك مهما طال الزمان..
كنت أوّمن بأن للمرأة ذمتها المالية الخالصة.. ولا يحق أبدا أن يكون

للرجل الوصاية عليها.. هذا ما نصه الإسلام الحنيف وهذا ما تعلمته
يا ولدى فى الأزهر...

كانت جلسات السمر التى تجمع أمى وخالتى زينب وخالتى صفية
أحيانا.. بمثابة الترفيه الوحيد لهن.. كن يتذكرن طرائف حياتهن
ويجدن فى ذلك تسلية عظيمة.. لم تكن دارنا كما يقول حسونة دارا
للمسنين بل كنت أحمد الله أننى هونت على تلك الهرمات أمر دنياهن..
وفى يوم من الأيام قرر حسونة أن يسافر إلى المنصورة.. حيث إنه أحب
امراة من بيت حظ كانت تعمل فيه وقرر أن يسافر إلى المنصورة ببلدتها
ويتزوجها.. فرحت بذلك القرار فى حقيقة الأمر.. بالرغم من أنه أجبر
عمى على بيع حانوته ليأخذ المال ويسافر مع تلك المرأة.. لم يكن هناك
حزين على سفره غير أمه خالتى صفية.. وشد المرض على عمى مالك
بعد فعلة حسونة ببيع الحانوت.. فثقل كلامه وشلت حركته فلزم
الفرش...

بعد سفر حسونة بثلاثة أشهر.. توفى عمى مالك رحمه الله ودفن إلى
جوار جدتى كما أوصى.. اجتمع فى جنازته التجار وأصحاب الحوانيت
حيث كانوا يعدونه كبيرا لهم.. رحمه الله كان رجلا عظيما وصانعا
ماهرا.. جعل هذا له عند الناس من السيرة الطيبة ما بقى بعد موته
بالرغم من أفعال حسونة الشنيعة.. التى يندى لها أى جبين...

بعد وفاة عمى مالك مرضت خالتى صفية بشدة.. لم أكن أتوقع قط
هذا الارتباط بينهما.. بالرغم من التناوش المستمر بينهما الذى لم ينته
يوما.. لم تتحمل خالتى صفية أن تكون وحيدة من بعده.. أو تعيش بعد

عمى مالك غير أيام قلائل.. رحمها الله.. أوصت أن تدفن إلى جواره..
كتبت بذلك إلى محمود وأرسلت مع أحد تجار الصعيد إليه برسالة..
أخبره بتلك الأحداث...

وفى يوم ورد إليّ مكتوب من محمود بعد ذلك بأشهر.. جاء به
الشيخ عبد البر صديق محمود وأحد تلامذته فى الصعيد.. ذهبت إلى
البيت مسرعا أبشر أمى بالرسالة وقرأتها إليها:

أمى الحبيبة.. كم أشتاق إلى رؤياك.. وردت إلينا رسالة حسن..
إننا لله وإنا إليه راجعون.. حزنت ياسمين لوفاة أبيها.. ولكن الله يلهم
الصبر عند الشدائد.. لقد أنزلنا فى الصعيد خير منزل.. بين أهلها أناس
طيبون.. بسطاء.. مازالت فطرتهم نقية بالرغم من البدع التى بينهم..
يهدى الله خلقه للخير والسادات.. أوصيك يا حسن بأمك خيرا.. والسلام
خير ختام..

كانت تلك رسالة محمود التى وردت من الصعيد.. فرحت أمى بتلك
الرسالة فرحا شديدا.. وتهللت أساريرها بعدما كانت حزينه كل الحزن
بعد وفاة خالتي صفية رحمها الله...

* * *

وردت أخبار من الإسكندرية.. بوفاة الشيخ عبد الغفار القاضى.. فخرجت آلاف الناس لتودعته.. ثم تنادى الناس بتولية إبراهيم ابن عبد الله العطار مقام الشيخ.. ورفع على الأعناق... لما وردتنا تلك الأخبار كتمتها عن أمى.. فمثل هذا الأمر يقلقها على إبراهيم أذى.. فهو الآن فى صدارة الموقف السياسى ضد المماليك.. أعرف ما ناب الشيخ عبد الغفار حتى أدركه الموت.. لاقى الكثير من العنت.. فسجن فى قلعة قيتباى على بحر الإسكندرية سنوات طوال.. وخرج منها مريضاً كهلاً لا يقدر على المشى وحده.. وبالرغم من ذلك لم ينسه الناس قط وهو فى سجنه.. بل كانوا يتحسون أخباره بين الحين والآخر.. ويرسلون إليه بالرسائل ما استطاعوا فى محبسه ويجب أحياناً إن سنج له الأمر برسائل.. تخفى عن أعين المماليك وأتابكهم وتخرج من السجن.. إلى العامة فتقرأ عليهم فيتعلمون.. إن لكل ظلم نهاية مهما طال الزمان...

حمل الرجل على الأعناق فى جنازة مهيبة حكى لى بعض من تجار الإسكندرية عنها.. خرج أهل الإسكندرية من كل حذب حتى آباء الكنيسة انطلقوا خلف الجنازة يبكون هذا الرجل العظيم.. بعد مماته قرر الناس أن يجعلوا من قبره مقاماً.. ليكون شاهداً على هذا الرجل الذى مات يدافع عن حق العامة والفقراء.. ولكن أمر صنجد الإسكندرية بهدم هذا المقام بدعوى أنه بدعة.. هذا السكير يخاف على الإسلام من البدع!!..

زمن غريب اختلط فيه الحابل بالنابل.. ثم تم نقل رفاته بعدها إلى قبر أحد الصالحين بالإسكندرية ليلا حتى لا يعرف أحد مكانه...

* * *

خرجت أمى من غرفتها.. شاحبة اللون تتكى على عصاها.. فلقد سافرت خالتي زينب إلى أختها فى المنوفية.. ورد إليها مكتوب بأن أختها التى تسكن المنوفية مريضة جدا وتريد رؤيتها قبل موتها.. ومنذ ذلك الحين تشعر أمى بالوحدة ورجعت لشجونها الأول.. نظرت إلى وجهى فعرفت أننى مهتم لشيء ما.. ثم اقتربت منى لتدقق فى وجهى.. ثم قالت :

- مالك يا حسن؟

- لا شيء يا أمى..

- هل حدث سوء؟

- أبدا.. مات أحد أصحابى فأنا حزين عليه..

- البقاء لله يا بنى.. كل إلى زوال يا بنى..

- نعم يا أمى ونعم بالله..

- ألا توجد أخبار عن خالتك زينب؟

- لا ليس بعد..

- أوحشتنى هذه العجوز.. ليبتها تسرع فى الرجوع..

- إن شاء الله يا أم..

جاءت فيروز تجلس إلى حجرى.. تعرف لكل واحدة من بناتى معزة فى القلب لا تشبه الأخرى.. فيروز هذه الثانية من بناتى كانت

تشبه أُمى كثيرا بالرغم من أنها أخذت عيني أمها الزرقاوين.. كان هذا يجعل لها عندي حظة تختلف عن إخوتها.. ففطيمة هي طفلي الماكرة.. عندما تكسر شيئاً تأتي لتكون في حمايتي من أمها ثم إذا جاءت تسألها من كسرها تشير بأصبعها الصغيرة إلى إحدى أخوتها.. أحيانا تنجح الوشاية وأحيانا أخرى لا تنجح.. أما إبراهيم فلا يزال صغيرا يبكي طوال الليل.. فتأخذه أمه إلى غرفة أخرى حتى لا يوقظني بكاؤه.. شويكار هي نسخة رقية الصغيرة.. تقلدها في كل شيء وتجلس إلى جوارها وهي تعد الطعام فتمسك بيدها الصغيرة السكين تقطع بها الخضار.. أو تلعب بالعجين وتشكل منه أشكالاً وتصر على تسويتها في الفرن...

* * *

اليوم يوم المولد الكبير.. مولد السيدة زينب.. عادة أُمى أن تذهب إلى المولد تقرأ الفاتحة عند المقام وتتبرك ببركة آل البيت.. كعادة أهل مصر منذ زمن.. يحتشد الناس في ذلك اليوم عند المسجد.. ويجلس المتصوفة في حلقات الذكر ويلهو العامة ببعض الألعاب والخدع.. وتلعب الأطفال وتشتري الحلوى.. وترتدى ملابس جديدة كيوم العيد.. آثرت رقية يومها أن تظل إلى جوار إبراهيم الصغير.. فحرارته مرتفعة.. خفت على البنات من الخروج فتركتهن مع أمهن في البيت.. جهزت أُمى نفسها لذلك اليوم.. وأحضرت النذور والصدقات معها.. وصلنا إلى ساحة الاحتفال وساحة المسجد وقد امتلأت بالناس.. يلعب المهرجون والمدعون السحر بالألعاب النارية والبارود.. فيخيل للعامة أنها من الأعيب الشيطان..

يأتى البكوات أيضا إلى هذا الحفل يجلسون فى خيم أعدت للعروض
السحرية ويشربون النرجيلة.. ويتضحكون.. يوم لهو قد أضيف إلى أيام
لهوهم التى لا تنتهى...

فى ذلك اليوم كان من بين الحضور إسماعيل بك الدالى ومعه
ابنته الصغيرة وقد ألبسها كوفية مزينة بالذهب.. جلس إلى مجلس
البكوات وترك الطفلة مع عبده الحبشى.. لعبت الطفلة وجريت بعيدا
عن مجلس أبيها وخلفها العبد الأسود فجاءه أحد الحاضرين وعرض
عليه قتل الطفلة لأخذ تلك الكوفية الذهبية وبيعها.. فوافق الحبشى..
فأخذوا الطفلة بعيدا خلف مسجد السيدة نفيسة وذبحوها وألقوا بها فى
قبر قديم.. وسرقوا الكوفية.. رأيت أباهما يومها وقد شاط عقله عندما
ذهب يبحث عنها ولم يجدها.. وضرب العبد الحبشى الذى أوكل بها
بالكرباج.. ولكنه لم يبد أى تأثر.. انتهى يوم المولد ورجعت مع أمى إلى
البيت.. واشترت الحلوى لأطفالى.. مرت بعض الأيام فإذ بعبد حبشى
غير الذى رأيته لإسماعيل بك.. قدم إلى البيت وقال: إن البك يطلبك..
فقد وجدت الفتاة وهى مذبوحة.. فلما سألته فى الطريق علمت أن
أباهما أوصى كل تجار الذهب بوصف الكوفية لهم وبعد ثلاثة أيام.. جاء
الذى سرق الكوفية يبيعها لأحد التجار فقبض عليه.. وعندما عذبه البك
اعترف بذنبه وأخذه فأشار إليهم على القبر.. فوجدوا الفتاة ومازال
فيها النفس...

ذهبت إلى بيت البك فأسرع إلى وقال: أيها العطار ابنتى تموت..
افعل لها أى شىء وسأعطيك ما تشاء بعدها.. وجدت الطفلة هزيلة

ولونها شاحبًا.. فأوصيت لها بالطعام.. وأعطيتها بعض من الأدوية
تنعش دورتها الدموية من جديد.. وكان الجرح فى رقبتها ليس غائر
ولم يصب الوريد.. فلما أفاقت فرح أبوها.. وأعطانى كيسا من الذهب
على ذلك وانصرفت عنهم...

فى اليوم التالى سمعت القصة من العامة يذكرون أسطورة ركبت على
قصة تلك الفتاة فحكوا أنها عندما أفاقت حكى لأمها أن امرأة ترتدى
جلبابا أبيض جاءت إليها وقالت لا تخافى يا صغيرتى سأخرجك من
هنا غدا.. أنا السيدة نفيسة.. ووضعت يدها على الجرح فاندمل وانقطع
نزف الدماء.. وكعادة القصص الشعبية تنتشر سريعا ولا يعترضها شىء
أبدا.. خاصة بين الناس صار الهم دأبها.. ولا يجدوا تسلية فى الحياة
غير الحكاوى...

* * *

وقع الطاعون فى المحروسة والمعروف بطاعون كور.. وكان يطلق
عليه الفصل العائق يأخذ على الرائق.. وهو الطاعون الرئوى أشد أنواع
الطاعون فتكا.. وانتشاره يكون عن طريق البراغيث أو رذاذ المريض أو
شىء من فضلاته.. أخذ هذا الداء من المحروسة أرواحا كثيرة حتى
تدفن الناس بالليل بالمشاعل.. وأصاب الكثير من البكوات.. كان العامة
تقول إن هذا بلاء يرجع إلى وبال أمر الممالك.. ينسب إليهم الناس دوما
ما يكرهون.. وهذا نتاج كراحتهم لهم...

أمرت أمى أن يغلق باب البيت وألا يخرج منه أحد أبدا.. واستمر
هذا الحذر حتى أعلن أن الله عفا مصر من هذا الداء.. وأمرتنى أن أشعل

البخور دوما.. ويخرج الفرش كل يوم إلى الشمس ليظهر من البراغيث والحشرات.. كانت تلك هى طرق الوقاية التى نملكها من هذا الداء اللعين.. توقفت عن التطيب تلك الأيام.. بأمر من شجرة الدر.. ومن رقية أيضا.. برغم شعورى بالذنب والتقصير فإننى آثرت السلامة.. فمكثت فى البيت أربعة أشهر كاملة حتى انقضى الأمر...

جاءنا مكتوب بعدها بشهر من المنوفية.. كتب فيه..

إلى بيت الحاج عبد الله العطار.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أما بعد فالبقاء لله وحده.. ننعى إليكم خالتي زينب فقد أصابها ما أصاب الناس من داء الطاعون فماتت به.. بعدما ماتت أمى السيدة طاهرة (أخت خالتي زينب).. ودفنت مع أمى فى مدافنا فى المنوفية.. رحمها الله وجعل الجنة مثوى لها..

عندما وصلنى هذا المكتوب تسلمته رقية.. ولكنها لا تقرأ.. حاولت أن أخفى عليها الأمر ولكنها فهمت ذلك من قبل أن أتفوه به.. فقد كانت تعرف أن المكتوب جاء من المنوفية.. نظرت إلى وعيناها دمعة وقالت:

- أمى؟.. أجبنى يا حسن.. أمى؟

- اهدئى يا رقية..

- لا شاهدت الرؤيا.. إنها أمى.. جاء أبى يأخذها..

- إن الأعمار بيد الله يا رقية..

- وماذا عن خالتي؟

- رحمها الله..

سقطت من فورها على الأرض.. حملتها إلى السرير.. وأخذت أمرضها
ظلت في السرير أسبوعا كاملا.. لا تستيقظ حتى تبكى بشدة.. ولا تهدأ
إلا إذا احتضنتها كالطفلة التي فقدت أمها.. أما عن أمى فحزنت ولكن
سرعان ما عزمت أمرها.. وأدركت أن الحياة قصيرة مهما طالت..
جاءت شويكار أخت رقية للمرة الثانية بعد فرح رقية إلى بيت الزوق..
جاءت تبكى ولكنها كانت متماسكة إلى حد بعيد عن رقية.. فقد كانت
خالتي زينب بالنسبة لرقية كل شىء.. ملجأها وحماتها فى الدنيا..
هكذا كبرت رقية.. جلست شويكار إلى جوار أختها الصغيرة.. تبكى
وفى يدها طفلها الصغير عمر.. أسمته اسما عربيا.. كانت لتلك الزيارة
أثر فى رقية.. فقامت من فراشها وبدأت فى التعافى.. ولكنها كانت
كثيرا ما تتذكر أمها فتبكى.. ثم تدرك ما آلت إليه الأمور فتهدأ قليلا..
فى يوم قالت لها أمى:

- تعرفين يا رقية ماتت أمى وأنا طفلة صغيرة وربتني خالتي حتى
تزوجت.. فكانت خالتي تلك بمثابة أم لى.. لم أعرف غيرها أما..
وعندما ماتت شعرت بفقد الأم.. لكنى أدركت أن الله يجعل الناس
أسباباً لبعضهم البعض.. فلولا خالتي تلك لمت فى صغرى.. ولكن
سخرها الله لى لتكون لى أما.. فلما ماتت علمت أن الله حى لا يموت..
وهو يرزقنى وأحن من أمى وخالتي على...

جعلت تلك الكلمات رقية تسلك مسلكا جديدا فى الحياة.. تطيل فى
صلاتها وتكثر من الصدقات.. وتسبح كثيرا.. كان فى ذلك أمل جديد
فى الحياة لها...

كبرت شويكار.. الفتيات فى سنها يتعلمن القراءة والعلم.. قالت أمى
البننت فى نهاية الأمر مصيرها إلى الزواج.. ولكنى أبيت إلا أن أعلمها..
اتفقت مع الشيخ جاد الحق صديق محمود أن يعلم شويكار وفيروز..
القراءة والقرآن.. وعهدت له بمبلغ من المال مقابل ذلك.. فكانت رقية
تجلس خلف الباب تسمع الدرس معهن وتتعلم كيف تقرأ حتى تقرأ
القرآن.. كانت تفرح كلما تعلمت شيئاً جديداً.. وتحكيه لأمى آخر الليل
قبل أن تنام.. كم أوحشتنى رقية.. أوحشتنى !!

* * *

استيقظت فى ذلك اليوم على صراخ إبراهيم قد تعالى الصراخ حتى أيقظ من فى البيت.. دخلت الغرفة الأخرى حيث ينام.. وجدت رقية تحمله تحاول أن تسكته بأية حال ولكن بلا جدوى.. أعرف أنه ضعيف منذ مولده ولكنى لم أعرف السبب فى صراخه الدائم هذا.. لا يهدأ أبداً إلا إذا حملته جدته فى صراخه طوال النهار.. ولكن فى ذلك اليوم حملته أمى كما تفعل ولكن دون جدوى.. حرارته ترتفع.. أسقيه الدواء وأعلى له الأعشاب.. فيهدأ قليلاً ثم يعاود الصراخ من جديد.. يحيرنى أمره.. شىء ما يخبرنى أنه لن يعيش عمراً مديداً.. فضعفه هذا لا يعينه على البقاء.. كثيراً ما أعددت نفسى لهذا اليوم.. وأتذكر مصيبة رسول الله فى فقد ابنه إبراهيم حيث بكاه.. وأذكر نفسى بالصبر وبأنه سيصير من أطفال الجنة ويأخذ بيدي ويد أمه لها.. ثم أراجع نفسى ثانية فأستغفر وأتذكر أن الأعمار بيد الله وحده فتهدأ نفسى قليلاً...

أعطيته بعضاً من الأدوية المسكنة للألم.. فهدأ ونام.. لكن أمه لم تنم.. جافى عينيها النوم خوفاً عليه.. ظل على هذه الحال فى الصراخ غير المنقطع أربعة أيام كاملة.. حتى إننى تمنيت لو أنه ارتاح من هذا الألم غير المنقطع.. سبع سنوات وهو يعانى من ضيق التنفس.. وآلام كان يحاول أن يعبر عنها كلما سألته فيشير إلى صدره.. وفى اليوم الرابع شاء الله أن يرحم هذا الطفل ويجعله فى اللؤلؤ المكنون...

بعد العشاء بدأت فى محاولة للنوم.. وما إن أغمضت عيني حتى وجدت باب الغرفة يفتح وتدخل منه رقية.. تبكى بصوت منخفض.. تشهق بصوتها وكأنها تبكى منذ ساعات.. سدل هذا الستار الفضى الشفاف على عينيها الحزينة.. كما كان يفعل كلما بكت.. قالت بصوت كدت أسمعه :

- مات إبراهيم..

كنت أعرف هذا فكان وقع الصدمة على قد مهد له منذ زمن.. أو ربما لم أكن أدرك الأمر فى حينه.. ولكنى قمت من فراشى.. ووضعت كتفيها بين يدي.. وأجلستها على كرسى خشبى قد وضع فى الغرفة.. وجثوت أمامها على الأرض.. أحدثها بصوت العقل.. أجهر بما أعددته لنفسى من قبل من عزاء.. هى أيضا كانت تشعر أن تلك اللحظة ستحين يوما.. لا أعرف من أية فطرة جاءت بتلك الأفكار.. لم تكن تجيب.. فقط تهزهز رأسها موافقة على ما أقول.. ثم حكمت لى بهذا الصوت الناعم الهادئ فقالت :

- مات مثلما تموت القطط الصغيرة.. فقط أخرج نفسه هكذا..

ونفخت فى وجهى بهدوء.. لا أعرف من أين جاءت حينها بتلك الرصانة والهدوء.. ربما أدركت حقيقة الموت بعد كل ما رآته فى بيت الزوق من حزن وموت وفرح وضحك حتى الدموع...

الدموع لطلما تساءلت من أين تأتى تلك القطرات.. لا أعرف دموعا لخلق آخر غير الإنسان.. للدمع هذا سر خفى.. كانت أمى تقول يجعل الله شعور الإنسان دمعا فيخرج من الجسم فلو بقى فيه لقتله.. كانت

حكيمه رحمها الله بالرغم من جهلها لكثير من الحقائق.. ولكنها كانت بسيطة تفرح وتحزن بلا حساب.. كنا نعيش على الفطرة فيهدينا الله السبيل.. نتوكل عليه فيرزقنا كما يرزق الطير.. نصبر على البلاء فيرحمنا برحمات ولطائف...

فى الصباح علمت أمى بالأمر.. وأخفيناه عن أخواته هكذا أرادت رقيه.. ثم نادتنى أمى محاولة تهدئتنى.. فتقول ما تعرفه عن الصبر قولتها المعتادة.. أسمعها منها منذ الصغر ولكنى لا آمل أبدا من سماعها.. ثم سكتت قليلا.. وسكبت الدمع عندما تذكرت أخى إبراهيم الذى طال غيابه عنها كثيرا...

كبرت أمى فلم تعد تميز الأشياء بسهولة.. وتخلط الأسماء ببعضها البعض.. أحيانا نضحك على ما تقوله.. ثم تدرك أنها أخطأت.. فتحزن كثيرا وتسكت عن الكلام.. ثم تنسى الأمر وتعاود من جديد.. داء النسيان يصيب الناس عندما يكبرون.. سمعت أبى يقول إن هذا الداء يأتى نتاجا لتتابع الأحزان على الإنسان.. فيرزقه الله النسيان ليخفف عنه.. فلم يسم الإنسان إنسانا إلا لأنه ينسى....

أذكر مثلا من نوادر أمى أنها كانت تنادى رقيه باسم أمها زينب.. وتنادى شويكار الصغيرة باسم رقيه.. فتضحك الصغيرة وتقول:

- اسمى شويكار يا جدة..

- أعلم يا بنيتى أن اسمك رقيه..

فى يوم استيقظت من نومها تنادى أبى.. وخرجت تبحث عنه فى البيت كله.. فلما لم تجده خبطت على رأسها وقالت:

- لقد مات يا فتحية منذ زمن.. حتى هذا نسيته:

ضحكت رقية عندما سمعتها تقول ذلك ولكنها كتمت ضحكتها
فنظرت إليها أمى وقالت :

- علام تضحكين يا زينب؟!

- لا شيء يا أم..

- ألم تأت خالتك صفية بعد؟

- خالتي صفية ماتت من زمن..

- ماذا؟

- لا شيء سأرسل فى طلبها..

رأيت هذا المشهد.. فلم أستطع أن أمسك دموعى حينها.. بينما
كانت تضحك رقية من هذا.. فلما رأتنى أبكى.. جاءت تعتذر عن هذا
بأدب وجهها البرىء.. قلت لها :

- كبرت أمى يا رقية.. كبرت..

- تلك هى سنة الحياة يا حسن.. ماذا نفعل؟

- ليتنى أعرف أن آتيها بإبراهيم ومحمود..

فى ذلك الحين تذكرت وصية أبى.. أن أرعى أمى ولا أدعها أبدا..
كنت أتساءل كثيرا عن سر الإنسان عندما يدركه الموت أو يشعر بدنو
الأجل.. ربما تكشف له الحجب.. أم أن هذا خاصة لأوليائه.. أو ربما
هذا خص به من يموت فى الحج.. ذهبت مع أبى مرارا فى رحلة الحج..
عندما كنت صغيرا.. لم أدرك ذلك قط.. ثم أعاود فأقول أيا ما كان هذا
الشيء المخفى عنا فعلينا أن نستسلم لواقع الحياة والموت...

* * *

مات إبراهيم الصغير يوم وصل أحمد باشا المعروف بكور وزير..
وصعد إلى الإسكندرية.. كانت بشائر قدومه سابقة له.. فعرف عن
هذا الرجل علمه وحبه للعلم وأهله.. طلب لقاء وفد من علماء الأزهر
عندما استقر بالقلعة.. حكى لى أحد تلامذة إبراهيم أخى أنه لما كان
فى الإسكندرية قابله إبراهيم وجلس منه بمقام التلميذ إلى أستاذه.. كان
الباشا هذا محبا للفكر والمنطق ومقدرا له.. فلما عرف بإبراهيم وقصة
أستاذه رحمه الله دعاه.. حضر إبراهيم وجلس الباشا إلى جواره وقال
علمنى أيها الأستاذ.. فكان يجالس إبراهيم مرتين فى الأسبوع يتعلم
منه.. كان إبراهيم محبا لعلم الحساب.. علمه عمى ذلك العلم عندما
كان يعمل معه فى ورشة النجارة.. ولكنه درس عن العلماء القدامى من
أهل الإسكندرية.. وظل يجالسه إلى أن حضر إلى القاهرة.. فطلب من
إبراهيم أن يعود إلى القاهرة.. قال وإلى من أترك تلاميذ أستاذى.. ولكن
أوصيك قبل أن ترحل فقال:

لا يخدعك المماليك أبدا فاحذر ثم احذر.. فغدرهم لا حد له.. يستغلون
العامة لمصالحهم.. يتكالبون على السلطان ويطلبونه ولو بالدم.. وعليك
بعلماء الأزهر فاجعلهم إلى جوارك.. وأسأل عن الشيخ حسن الجبرتى فهو
أهل للعلم والحساب.. فتعلم منه ولا تنسنى من صالح دعائك...

لذلك لما حضر إلى القلعة سأل عن الشيخ حسن الجبرتى.. (والد
الجبرتى صاحب التاريخ وأورد ذلك الجبرتى فى كتابه).. فلما سأل
عن علم الرياضيات شيوخ الأزهر فقالوا لا علم لنا بهذا.. فقال وكيف
تعرفون المواقيت والشهور.. فقالوا هذا العلم فرض كفاية.. فلما عرف

عَمَّنْ يَعْلَمُهُ هَذَا.. قَالُوا مِنْ ذَكَرْتِ (الشيخ حسن الجبرتي) .. فَكَانَ
يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيَعْلَمُهُ...

كَانَ الشَّيْخُ حَسَنُ الْجَبْرَتِي عَظِيمَ الْقَدْرِ عَابِدًا زَاهِدًا لَا يَنْظُرُ إِلَى تَرْفِ
الدُّنْيَا.. وَكَانَ يَصْعَبُ أَنْ يَحْضُرَ مَجْلِسًا لِلْبَاشَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَأَرْسَلَ فِي
طَلْبِهِ.. فَحَضَرَ إِلَيْهِ وَسَرَّ بِمَعْرِفَتِهِ.. وَكَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ كَمَا فَعَلَ مِنْ قَبْلِ
فِي الإسْكَندَرِيَّةِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ أَخِي.. أَوْ كَمَا كَانَ يَقُولُ الأُسْتَاذُ المَعْلَمُ يَقْصِدُ
إِبْرَاهِيمَ أَخِي...

فِي عَهْدِ هَذَا الرَّجُلِ كَانَ العَدْلُ مِيزَانَهُ.. فَعَمِلَ بِنَاصِيحَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجِمَ
جَمَاحَ المَمَالِيكِ فَعَدَلُوا بَيْنَ النَّاسِ وَزَادَ الخَيْرُ فِي عَهْدِهِ.. وَلَكِنْ سَرَعَانَ
مَا يَنْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٍ فِي الدُّنْيَا.. فَلَمْ يَطْلُ المَكُوْثُ فَاسْتَدْعَى إِلَى
الدِّيَارِ الرُّومِيَّةِ (الأُسْتَاذَةِ).. فَرَجَعَ وَهُوَ يَحْفَظُ فَضْلَ العِلْمِ الَّذِي دَرَسَ فِي
مِصْرَ.. فَارْتَفَعَ شَأْنُهُ فِي إِسْلَامِبُولَ وَكَانَ مِنَ الوُزَرَاءِ المَقْرِبِينَ...

لَمَّا حَضَرَ البَاشَا إِلَى القَاهِرَةِ أَرْسَلَ مَعَهُ إِبْرَاهِيمَ بِرِسَالَةٍ إِلَيْنَا وَرَجَاهُ أَنْ
يُوصِلَهَا.. فَأَحْضَرَهَا إِلَى البَيْتِ أَغَا مِنْ عِنْدِ البَاشَا.. وَقَالَ إِلَى شَوِيكَارِ
الصَّغِيرَةِ.. إِنَّهَا رِسَالَةٌ مِنْ عِنْدِ الأُسْتَاذِ المَعْلَمِ.. فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ البَيْتِ
مَا يَقُولُهُ فَظَنُوا أَنَّهُ أَخْطَأَ البَيْتَ.. وَلَكِنَّهُ أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا إِلَى بَيْتِ الزُّوْقِ..
فَلَمَّا وَصَلَتْ قُرَأَتِ الرِّسَالَةَ وَعَلِمَتْ أَنَّهَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ.. كَتَبَتْ فِيهَا:

أُمِّي الحَبِيبِيَّةُ تَحِيَّةٌ طَيِّبَةٌ.. فَلَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِعِلْمٍ أَعْلَمُهُ لِلنَّاسِ..
فَانشَغَلْتُ بِهِ عَنْكُمْ.. وَلَكِنْ يَا أُمَّ أَنْتِ حَاضِرَةٌ دَوْمًا مَعِيَ فِي صَحْوِي
وَنَوْمِي.. ضَيْقٌ عَلَيَّ المَمَالِيكِ كَثِيرًا بَعْدَ وَفَاةِ أُسْتَاذِي رَحِمَهُ اللهُ.. وَلَكِنْ
اللهُ أَخَذَاهُمْ.. وَرَفَعَ البَاشَا عَنِّي ذَلِكَ.. وَأَنَا الآنَ بِخَيْرٍ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلَكِنْ

العمر والتعب أخذاً منى.. هكذا هي الدنيا.. ماتت زوجتى بعدما ولدت ابنى الثالث عبد الرحمن فمنَّ الله على يا أم بولدين وبننت أسميتها فتحية.. كان فى ذلك تسلية لى فى البعد عنك.. وصلنى خبركم مع أحد تلاميذى رحم الله عمى مالك وخالتى صفيّة.. ورحم الله أموات المسلمين والصالحين.. لا تنسينى يا أم من دعائك.. وإن شاء الله يكون اللقاء قريباً.. والسلام..

بكت أمى بشدة عندما قرأت لها هذا الخطاب.. ولكنها سرعان ما نسيت الأمر.. أو لعلها تناسته فلا يعاودها الحزن من جديد على فراق إبراهيم.. ولكنها قالت كيف لى أن أتحمل أن يكون بعيداً عنى وقد قرب الأجل.. وأوصتنى أن أكتب له.. وألحت فى الطلب كثيراً.. عولت قليلاً على نسيانها الأمر ولكنها لم تنسه.. فأحضرت الورق والمحبرة وأملتني ما تريده.. فكتبت:

ابنى العزيز إبراهيم.. أما يكفيك يا ولدى هذا الفراق.. ما مر من العمر كثير يا ولدى ولم يتبق غير اليسير.. ارحم ضعفى وامنحنى فرصة رؤيتك قبل أن يبلغنى الأجل فلم أر أولادك حتى الآن.. أما إن أصرت على الفراق فالله يرحمنى.. والسلام..

كان وقع الكلام قاسياً أشفقت على إبراهيم أن يقرأه فيزيد عذابه.. واعلم أنه إن حضر إلى القاهرة فلن تتركه المماليك أبداً.. حتى إن حماه الباشا نفسه.. فلن تنسى المماليك ما لاقوه منه ومن أستاذه من عنت شديد وتقليل العامة عليهم.. بالرغم من أن المماليك تتوالى المناصب ولا يثبت أحدهم على منصب إلا القليل فيأتى من هو أكثر منه كيدا

فيعزله.. إلا أنهم يحفظون لبعضهم.. ويعلمون بعضهم البعض من هو معهم ومن يكرهون...

حفظت الرسالة عندى ولم أرسلها.. ونسيت أمى أمر الرسالة بعد ذلك.. وهذا ما كنت أرجوه.. غير هذا كيف سأرسلها فلا أعرف لإبراهيم مكانا أرسله إليه ولا عنواناً...

فى هذا العام أرسل محمود رسالة من الصعيد.. كان بعد التى أرسلتها إليه مع أحد التجار أخبره عن الأخبار قال فيها:

أمى الغالية.. بالله عليك لا تغضبى منى لبعدى أبدا.. ولا تنسينى من دعائك فلا أكون إلا ببركته فى خير أبدا.. أختى العزيز حسن البقاء لله وحده لما أصابك وأصاب رقية فإننا لله وإنا إليه راجعون.. لقد اعتزمت أمرى فى أن أرسل عبد الله للدراسة بالأزهر الشريف ليتعلم العلم من أهله ويجلس إلى أعمدته فيصلح أمر دينه ودنياه.. وعزمت أمرى أن أخطب إليه ابنتك شويكار.. فيكون ابنا لك.. أوصيته بها خيرا.. فلو خالف أدبه.. أما عنا فالحمد لله فى خير ونعمة.. والسلام خير ختام.. بعدها أرسلت إليه رسالة أخرى:

أختى العزيز محمود.. لو كان عندى من الولد.. ما تمنيت أن يكون على غير عبد الله ولدك.. ومن أولى بها منه بارك الله لهما وعليهما.. أما عن وصيتك فكما قلت هو ولى.. جعله الله خير طالب للعلم فيصير كأبيه عالما نفخر به إلى آخر الزمان.. والسلام

هكذا انتقل عبد الله ليكون مرة أخرى فى بيت الزوق.. ويصير زوجا لابنتى شويكار.. فرحت رقية بذلك.. ولكنها بكت فلما سألتها قالت:

كيف أفارقها يا حسن.. ضحكت من ذلك كثيرا.. آه من النساء لهن
أحوال عجاب...

وصل عبد الله إلى بيت الزوق فكان يوم عيد لأمى.. أجلسته إلى
جوارها طوال النهار.. وكلما رأته قبلته وقالت يا بن الحبايب.. ولكن
فى الصباح.. استيقظت من النوم فقابلته فى ساحة البيت جالسا.. ظلت
تنظر إليه وتتساءل.. من هذا الذى يجلس هناك.. ثم اقتربت منه كثيرا
ونظرت فى وجهه وقالت: من أنت يا ولدى؟.. تعجب عبد الله كثيرا
من السؤال.. تلثم لسانه ولم يجب.. فقالت رقية:

- هذا عبد الله يا أمى ابن محمود..

- وما الذى أتى به إلى هنا..؟

- هل هربت من أبىك يا ولد؟

- يا خالة جاء يدرس فى الأزهر ويخطب شويكار..

- كيف يتزوج هذا الصبى أختك يا زينب؟ ها أخبرينى

- يا أمى شويكار ابنة حسن.. يا حسن.. يا حسن أدرك أمك..

كنت مارا حينها إلى الباب خارجا إلى الحانوت.. فقلت لها: اهدنى

يا أمى تعالى ارتاحى قليلا ستكونين بخير إن شاء الله.. أدخلتها غرفتها

لتنام قليلا فترتاح.. هكذا نفعل عندما تكون على هذه الحال...

أصرت رقية على أن تكون لابنتها غرفة كبيرة بأثاث جديد.. على

الطراز التركى.. أوصيت النجارين بذلك.. وأعددت غرفة محمود بكل

ما يحتاجه العروس.. وكان الفرح عظيما.. جاء التجار من كل حدب

وصوب.. وجاءت نساء الحى يباركن لرقية.. يومها خالجنى شعور من

نوع متفرد لم أعهده من قبل.. شعرت بما سبقتنى به رقية.. وكأن شيئاً منى قد نزع.. أعرف أنها فى الغرفة المجاورة مع زوجها الخجول.. ولكن هكذا كنت أشعر بالأمر.. عبد الله ولد طيب مثل أبيه.. تعلم فى الصعيد على يد أبيه ومشايخ الصعيد.. ولكن أراد أبوه له أن يتم ما بدأه فى الأزهر فينال من علمه وينهل منه.. أمهر محمود ابنتى مائة دينار من ذهب.. كان هذا فى عهدنا مالا كثيراً.. ربطه عبد الله على بطنه طيلة السفر حتى يخفيه عن اللصوص.. وكان يخشى ويتمم عليه كلما سئح له الأمر.. هكذا كان يحكى...

حاولت أن أخفف الأمر عنى وعن رقية.. فقلت لها أتذكرين يوم فرحنا.. فضحكت وجففت دمعها وقالت:

- لا أنساه ما حييت.. تذكر الهانم عندما جاءت..

- آه.. شوكوزال.. شوكوزال رقية..

- ايغيت أفندم.. ترى أين تكون تلك المرأة العجوز؟

- فى إسلامبول..

- لا أقصد.. ألا تزال حية أم ماتت..

- رحمها الله إن كانت ميتة أو حية..

كان فى هذا الحوار تذكر لبحر من الذكريات.. أنستنا تلك السخافات

التي جابت رأسى.. مبارك لك يا بنيتى...

* * *

عادة تتلاحق الأفراح كما تتلاحق الأحزان.. يعتادها الإنسان على هذا النحو في دنياه.. عندما تشعر بالهرم والوحدة معا.. تدرك الحياة بشكل آخر.. ففي حياتي عرفت الناس بطبائعهم المختلفة وأفكارهم الغريبة.. وعرفت منهم العاقل والجاهل.. المحب والحقود العاشق والجاحد.. المتطرف في رأيه وفكره.. والمدرك لحقائق الأمور...

كذلك الظلم يصنع من الإنسان شيئاً آخر.. يمكنه أن يصنع وحشا أو يصنع أسطورة.. يصنع حباً أو يصنع مرضاً يكمن بين ضلوعه.. وينطلق منه دوافعه في الحياة.. فما أعظم أن تكون حاضراً في صدور الناس.. ويذكرونك إلى يوم يبعثون.. على أن ترضى بالخنوع فتذل وترضى.. تهان وتقنع.. تركز إلى الأرض...

هل فكرت يوماً لماذا خلقنا من تراب؟.. أنا فعلت خلقنا من أذل الأشياء.. وجعل الله منها أعظم الأشياء.. أعطينا العقل والحكمة والإرادة الحرة.. فإما أن تدرك الحقيقة بعظمة خلقك.. وإما أن ترضى بكونك تراباً لا تعلو على ذلك قدر أنملة.. من أذل نفسه فهو تراب.. من رضى الظلم فهو تراب.. خلق من عدم ويعود إلى العدم.. فقط حفنة من التراب تنثرها ريح خفيفة فتتناثر ذراتها فيعود لا شيئاً.. عندما أدركت العدم علمت كيف أكون موجوداً.. هكذا علمنى أخى الصغير إبراهيم صاحب البلاء العظيم...

* * *

حتما هذا شيء لا يصدق.. فيروز الصغيرة تتزوج.. كيف هذا؟..
كلمات قلتها وأنا أنظر إليها.. فاحتالت وجنتها إلى اللون الوردى..
وأغلقت أجفانها عن لون السماء.. ثم انصرفت مسرعة إلى غرفتها وقد
جعلت وجهها للأرض خجلا.. نظرت إلى رقية مبتسما.. قالت:
- أخرجتها يا حسن..

- كم أحب لون وجهها عندما يتورد (قلتها مبتسما)..
بدت الدموع في عين رقية وهي تنظر إلى عيني.. وتأخذني لدنيا
عينها.. لاحت برأسها بعيدا عني.. وكأنها تخفيها عني.. كان هذا
يجعل منى رجلا حزينا.. حقيقة على أن أدركها لكنى فى سكرة
للحظات.. أدركتها عندما قالت رقية باكية:
- ستفارقنى..

لم أتوقع أن يأتى هذا اليوم.. على العكس من أختها.. كيف أتحمل
هذا الفراق؟!.. ياه كم عانت أُمى من فراق إبراهيم ومحمود.. كيف
أستيقظ صباحا فلا أجد تلك الابتسامة وذلك الوجه أمامى يقول: أعد
الفطور يا أبت.. ولكن ماذا أفعل.. فابن عمومتى الذى حضر من الشام
جاء يخطبها لابنه الأكبر على.. أعرفه منذ كنت صغيرا ففى رحلات
التجارة أمر عليه فى اللاذقية.. فلقد جمعنا الجد الأكبر.. وظللنا نحفظ
هذا إلى يوم رحل جده عن مصر يوم خاف على نفسه وولده الفقر والقحط
الذى أصاب البلاد يوما.. وها هو الآن يعود.. جاء لخطبة فيروز.. على
رجل دين خلوق مثل أبيه يعرف كيف يحميها ويحفظها ويحسن إليها
فى معاملته.. ولكن الفراق صعب.. لم أعد أستطيع أن أقوم برحلات
التجارة تلك منذ سنوات.. وكنت أكتفى أن أوكل أحدا بالتجارة على

أن نتقاسم الربح.. أرفض هذا؟!.. كيف أطفئ تلك الفرحة التي ملأت وجهها عندما عرفت بالخبر.. شيء ما يلح عليّ أن أرفض.. لم أكن أشعر بهذا عند زواج أختها...

أدركت هذا الشعور أُمي.. فنظرت إليّ عندما أخبرتها بالأمر فقالت كف عن تلك الأنانية التي تطغى على الآباء.. ابنتك سعيدة لهذا الأمر.. وهل تجد خيرا من دمك يرعاها ويحفظها؟!.. كانت تلك عتابات أُمي.. أو لعلها أدركت ما بداخلي من صراع أبوى.. أحمد الله كثيرا أن داء النسيان الذي أصابها أصاب إدراك عقلها.. ولكنه لم يصب قلبها.. فهي لاتزال تذكر أنها أم.. فقط تنسى الفراق والأسماء.. وأحيانا تنسى الأماكن والاتجاهات فتصلى في اتجاه آخر.. فنتركها تصلى أنى شاءت.. هكذا قال عبد الله دعها يا عم فأينما تولوا فثم وجه الله.. لا تذكرها دوما بعلتها فتحزن.. لا أعرف عن الفقه قدر ما يعرفه عبد الله.. قدر ما أعرف عن الإنسان...

قرب أن ينتهي غرضه من الأزهر.. تمر الأعوام سريعا.. أخبرني أنه ينوى أن يرجع إلى الصعيد.. فقد كبر أبوه وأرسل في طلبه.. يخشى محمود أن يفارق الحياة وحيدا.. عندما كنا صغارا كان دوما يجعلنا ننام في غرفة واحدة بالرغم من أن البيت كبير.. يمكن أن تكون لكل منا غرفة مستقلة.. لكن محمود لا يحب الوحدة أبدا.. ولكن ليس هذا السبب.. لا أعرف السبب الحقيقي.. ربما يخشى أن يموت قبل أن يوصى لأولاده.. جاء الخطاب بخبر مرضه.. فقط ينتظر حتى ينتهي فرح فيروز فيغادر مع زوجته.. فالفراق الآن قد ازدوج..

يدق الباب بيد رقيقة.. أعرف من الباب.. إنها فيروز..
- ادخلي يا بنيتي..

عينها مملوءة.. ترمي برأسها على فخذي كما
تفعل دوما.. وضعت يدي على رأسها.. فهدأ بكاؤها قليلا.. رفعت
رأسها ونظرت إليّ وقالت:

- لا أريد أن أتزوج يا أبي..

- لم يا حبيبتي.. ألا تريد أن تكوني أما؟

- لا أقدر على البعد عنكم..

حاولت أن أربط جأشي وأخفف هذا عنها.. آه لو تعلمين يا بنتي
كم أتألم لهذا الفراق.. قلت لها متصنعا الصبر..

- هكذا هي الحياة يا صغيرتي.. وعلى رجل طيب ودين وخلوق..

- أعرف هذا..

- أيتها الخبيثة.. ألم تكوني تضحكين منذ قليل؟!.. كدت ترقصين

من الفرحة.. آتية الآن لخداعي.. مبارك لك يا حبيبتي..

عاود الابتسام فمها الصغير من جديد.. واحمرت وجنتها من جديد..

ثم نزلت على يدي تقبلها.. ونزلت على رأسها أقبلها.. دخلت رقية
ونظرت إليّ بابتسام.. وقالت:

- الله الله..

- رأيت يا فيروز ستغار أمك منك..

- ممن أغار يا حسن.. هل نسيت من أنا ها..

- من؟! تلك الجميلة صارت امرأة كبيرة.. وجميلة.. أجمل من

أمها.. تشبهني..

- هكذا إذا..

- نعم..

- قومي يا فيروز ساعدي أحتك في إعداد الطعام.. وأتركى لى

هذا الرجل..

قامت فيروز إلى الباب.. فاحتضنتها رقية وقبلت رأسها وقالت:

مبارك لك يا بنيتى.. ثم ضربت بيدها على كتفها.. ونظرت إلى وجهها

طويلاً.. ثم قالت: هيا لا تتأخرى.. أغلقت رقية الباب.. ونظرت إلى

وبدأت البكاء من جديد.. ثم قالت غاضبة:

- قالت لى شويكار عن أمر رحيلها أيضاً.. لم لم تخبرنى؟

- كنت أنتظر أن تهدئى قليلاً

- ماذا أهدأ؟!.. كيف أهدأ.. وابنتاى تفارقاننى؟

- وهل تظنين أن الأمر على هين؟

- أنت رجل.. لا تشعر بألمى أبداً..

- وهل نزعت القلوب من الرجال.. اهدئى يا رقية لم يعد هذا يغير

شيئاً.. لقد آن الحين لحياة الجديدة.. لطالما تمنينا ذلك..

انصرفت من الغرفة حينها ولكنى أدركت أنها ستظل على بكائها

هذا طويلاً.. لا يندمل هذا الأمر سريعاً وأظنه لن يندمل.. مثيلات رقية

من النساء لا يعرفن كتم الحزن أبداً..

لم يطل الأمر كثيراً.. فها هى فيروز تسافر إلى الشام مع زوجها

على.. وتلحق بها شويكار مع زوجها إلى الصعيد.. وما إن وصل عبد الله

إلى الصعيد ولم يطل الأمر غير شهر.. حتى أرسل فى خبر أخى محمود

رحمه الله.. كنتمت الأمر عن أمى.. وصرت أجلس فى الغرفة أبكى وحيدا.. فمثل محمود من الرجال لا يعوض.. فهو الأخ والصديق ورفيق الصبا.. كان موته هذا متوقعا فكان يعانى رحمه الله من داء الكبد.. ومات من هذا.. رحمه الله وفى وكفى.. أما إبراهيم طريد الممالك هذا فلا نعرف عنه شيئا...

أذكر يومها أننى جلست على الأرض أبكى كطفل صغير ضاع من أمه.. نظرت لى رقية وبدا عليها الاندهاش.. ثم جلست إلى جوارى وضممت رأسى إليها.. وصارت تمسح على رأسى.. وتمسح دمعاتى المتناثرة.. وأنا مستمر فى بكائى بشدة.. ثم رفعت رأسى ووضعتها بين يدها.. فكانها فصلت عن جسدى وصارت إليها فقط.. قالت:

لا تبك يا حبيبى.. تعرف أن محمود كان يتألم.. ربما اختار الله حدا لهذا العذاب.. ألم تخبرنى من قبل أن فراق الحياة يتلاحق.. لا تسرف فى هذا فتعرف أمك الأمر.. ما عادت تقدر على الحزن..
- أعرف هذا.. ولكن كيف أمنع دمعى.. هذا أخى.. ليس بوسعى أن أتحمل يا رقية.. لا أستطيع.. لا..

أرجعتنى ثانية إلى حضنها.. وشعرت بدفء دمعها الصامت ينزل من عينيها على رأسى.. وظللت على هذه الحال ساعة حتى أرهقنى البكاء وغلبنى النوم.. فأنزلت رأسى على وسادة.. وأغلقت الغرفة حتى أرتاح قليلا...

* * *

سيحيا هذا اليوم فى عقلى إلى الأبد.. يوم طلبت منى أن نذهب إلى النهر كما كنا فى أول أمرنا نتسكع على ضفافه نرى الأشجار والطبيعة

من حولنا فننسى الهموم والأحزان كلها.. ننظر إلى العالم من حولنا كأنه غريب عنا ونتفقد شكل الماء الجارى كأنه يجرى لنا.. والطيور تغرد من حولنا أى سحر هذا للمشى بين تلك الطبيعة الغناء.. يومها كانت مياه النهر فى نقصان.. ربما يكون هذا بداية لجفاف جديد.. يحفظ الله مصر.. كثيرا ما بليت...

أمسكت بيدي.. بل تعلقت بها.. كأنها تخشى أن أهرب منها.. وصلنا إلى شاطئ النيل.. فى النهر تقف راهبتان وقد وصلت المياه إلى الركبة منهما.. ومن حولهما الطيور تشرب من الماء غير عابئة بوجود من حولها.. نظرت إلى ونطقت بعد صمت طويل...

- تذكر يا حسن عندما قلت لك أن تعدنى ألا تتزوج بعدى؟
- طبعا أذكر.. هل تشكين فى أنى أفعليها؟
- لا.. أنا أحلك من هذا العهد..
- ماذا؟.. وهل ترين أن لى حاجة فى الزواج؟
- بل أخشى أن تكون وحيدا فى يوم ما..
- لا يا رقية لا أحب مثل هذا المزاح..
- لا تغضب.. فقط خاطر جال فى رأسى.. دعنا نكمل مسيرنا..
- هيه.. كبرنا يا رقية.. مرت الحياة سريعا..
- نعم.. ليتنا نبدأ من جديد..
- نعم يا لبيت..
- ترى ما حال شويكار وفيروز الآن.. أشتاق إليهما؟
- نعم والله.. أتمنى من الله أن تكونا بخير حال...

- آمين.. حكت لى اليوم أمى فتحية عن رؤيا..
- خيرا..
- قالت أن إبراهيم سيأتى..
- ليته يفعل كبرت أمى وأنا أخشى عليها.. تعرفين الأعمار بيد الله..
- لا ندرى يا حسن من يموت أولا.. ربما يرجع يوما..
- ربما..
- هل تريد القليل من حب العزيز؟
- وكيف لا أريد.. تذكرين المرة الأولى؟
- عندما كنت تنظر إلى تلك الفتاة على النهر وهى تغسل الملابس وكشفت عن ساقها..
- أنت سوداء القلب يا رقية.. لم أكن أنظر إليها..
- بل نظرت..
- لا أبدا.. لم أكن أنظر.. ونحيت رأسى..
- تقسم على ذلك..
- أقسمت لك عشر مرات من قبل..
- وتلك الفتاة الجميلة.. الجالسة على النهر..
- هل جننت يا رقية.. إنها فى عمر ابنتى.. لن أشتري حب العزيز.. هيا نعود إلى البيت.. قد نالك الكبر وخرفت رأسك؟
- تعال يا حسن.. كنت أمزح معك.. (قالتها وهى تضحك)
- إن كان الأمر كذلك فلنشتر حب العزيز.. (نظرت إليها عابسا
- ثم ابتسمت)

ما زلت كما أنت.. لم يغيرك الزمن.. تغضب كالأطفال..
- وأنت أيتها العجوز ما زلت تغارين..

مشينا فى ذلك اليوم حتى نسيت قدمانا الطريق ووصلنا إلى الجيزة..
حيث الأهرامات وأبو الهول المدفون نصفه تحت الرمال.. ينظر إلينا
وكأنه يقصد هذا النظر.. جلست رقية على شاطئ النيل وأطالت النظر
إلى الجهة الأخرى حيث الهرم.. وقالت:

- هل دخلت هذا الهرم من قبل؟

- كيف أدخله.. إن به من الأهوال ما يشيب له رؤوس الولدان..

- تحاول أن تخيفنى..

- لمَ تسألين هذا السؤال.. ألم نأت إلى هنا كثيرا من قبل؟

- نعم أتينا.. لكن لم يخطر ببالي ذلك..

- فيم تفكرين أيتها المجنونة؟!

- تعرف..

- لا مستحيل..

- هل تظن أن أحدا سيدخله فى يوم ما ويكتشف سره؟

- ربما.. لكن أعرف من دخله.. ألم أحك لكى عن قصص الشيخ

مسعود؟

- نعم أذكر ذلك.. ليتنى أدخله فأعرف ما به من عجائب..

- قومى يا رقية.. فلنرجع إلى البيت قبل أن يشط عقلك أكثر من

ذلك.. هيا

بادرت بالوقوف والانصراف وهى تلحق بى وتقول انتظر يا حسن...

ينادى المنادى فى كل حذب وصوب.. وصل الطاعون إلى المحروسة..
وأصدرت كعادتها أمى التعليمات.. وصارت توصينى بالبخور وغيره..
وتوصى رقية بالفرش.. اعتدنا تلك الأمور فالطاعون ضيفنا الثقليل كلما
انخفض النيل.. يجعله الله تلك المرة خفيفا.. الناس يسمون هذا الداء
كل مرة باسم عجيب حيث تعرف من اسمه القصد فى أية مرة أصاب
البلا.. فى تلك المرة أسموه اسما عجيبا آخر «قارب شيحا الذى أخذ
المليح والمليحة».. سبق هذا الداء مطر غزير أصاب البلا.. أحدث هذا
المطر سيلا.. أذكر تلك الأيام.. غمر هذا المطر الحانوت وأتلف الكثير مما
به من أدوية وحبوب.. ولكن كان هذا أخف المصائب حينها...
لم أسمع تلك المرة إلى قول أمى بألا أترك البيت أبدا.. بل كنت
أخرج بين الحين والحين.. كلما استغاث بى أحد لأطببه.. ولكن ما لهذا
الداء طب فقط.. أستطيع أن أسكن ألمه قليلا.. أو أخفف من وطأته فقط..
يصاب المرء بهذا الداء فتظهر ندبة سوداء مكان لسعة البرغوث الناقل
للمرض.. كلما أنظر إلى تلك الندبة أعرف أنه الطاعون.. أخذ الكثير من
الناس هذه المرة.. حتى إن هناك بيتاً فنى عن آخره.. كنت أدعو كل
يوم أن يعافينا الله منه.. لكن شاء الله أن يبتلينا به...
دخلت رقية وقد بدا عليها الإرهاق والتعب.. وظهر من شعرات
رأسها بعض الشعر الأبيض وقد انسدل قليلا آخذا لون الفضة..
- طيلة اليوم أنظف فى البيت وأحمل الفرش.. آه كم تعبت اليوم!

- فعلا يبدو عليك التعب ولكنك جميلة حتى فى تعبك..
- هكذا أنت دوما.. لا أجد منك غير معسول الكلام.. ألا تكف
عن هذا؟!

- وهل من شىء أجمل من العسل.. فيه الشفاء..
تغلبنى دوما.. بحديثك هذا.. مازال رأسى يدور كلما سمعته..
- نظرت إلى وقالت.. أشعر بدوار شديد يا حسن..
- لا تخافى سأتى لك ببعض من العسل الحقيقى..
- ألم شديد فى رأسى..
- كبرت يا رقية.. لم يعد فى وسعك ما تفعليه هذا كل يوم..
- أنا لم أكبر.. أنت الذى كبرت.. آه رأسى يا حسن..
- أمالت رأسها فرأيت ندبة على رقبتها..
- ما تلك الندبة يا رقية..؟
- أين تلك؟
- فى رقبتك؟
- أى ندبة يا حسن تقصد..؟
- تلك..
- أهذا هو يا حسن؟.. قل لى..
- لا لا.. إن شاء الله ليس هو..
- لا أخبرنى بالحقيقة يا حسن.. هو.. هو.. هو..؟
- ربما تكون ندبة قديمة.. لا تخافى..
- بل هو.. أعرف.. أشعر بالتعب منذ البارحة.. لا حول ولا قوة
إلا بالله..

- لا تضحك علىّ وعلى نفسك يا حسن.. أنا أعرف..

- لا تكونى متشائمة.. كلى.. حاولى..

- لا.. لا أقدر أن أشم رائحة الطعام حتى..

مسكينة رقية.. ليتنى أستطيع أن افتديها بروحى.. أشد البلاء

يا ولدى بلاء فراق المحبين.. ربما يكون نزع الروح أهون منه.. وما أشد

بلائى.. أعرف أنها أيام وسنتفارق إلى الأبد.. وسأظل وحيدا فى تلك

الدنيا.. هرمت وضعفت شوكتى.. وفطيمة الصغيرة سيأتى اليوم وترحل

عنى بعيدا هى الأخرى كأختيها.. وأمى العجوز من يكون إلى جوارها..

أدركت من اليأس ما جعلنى أقبل الأمر.. أو أحاول أن أتقبله.. ودعوت

الله أن يلهمنى الصبر.. تنام رقية طويلا قليلا ما تفيق.. المرض شديد

الألم.. بل أشد من ألم الفراق.. بالليل تجعلها الحمى تهزى ببعض

الكلام.. قالت لى وكأنها تحدثنى فى نومها:

- بعد موتى اجعل الناس همك يا حسن.. ينفعك هذا فى الدنيا

والآخرة..

كثيرا ما تلجأ إلى الناس.. ولكن هذا الأمر لا يشغلنى طوال الوقت

بل بعضه فقط.. نعم.. ليكون هذا دربى.. وصيتها.. أوصتنى بالفقراء

والمظلومين الذين لا ينتهون أبدا من المحروسة...

يأتى من المسجد صوت ينادى.. ترى من الذى مات تلك المرة..

الأسطى حسن السكاكينى.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمه الله كان

رجلا عظيم العلم والصنعة.. اللعنة على هذا الطاعون.. أما كان يترك ديار

مصر أبدا فى حالها.. أما كفانا بلاء.. المماليك وأى بلاء هؤلاء الشرازم...

أفاقت رقية فى الليل.. أضفى عليها التعب الشحوب.. قالت بصوت
متهدل من المرض :

- حسن.. والله إنى قد أحببتك..

- أمسكت بيدها غير عابئ بشىء من المرض.. ووضعتها على فمى..
وقلت لها :

- وأنا يا رقية.. ما أحببت مثلك أبدا فى تلك الدنيا..

- لكل شىء نهاية.. حتى الحب ينتهى..

- لا بل سيظل فى قلبى حتى موتى.. بغيره أموت..

ثم أغلقت عينها فى غياب آخر عن الدنيا.. عند الفجر.. سمعت من
المسجد صوتا.. يعلن أن السلطان مصطفى رزق بمولود وأعلن أن تعلق
الزينة فى يومها.. أى شىء أحقر من هذا.. لا يوجد بيت فى المحروسة
إلا به ميت.. هل ضاعت الرحمة من قلوب هؤلاء.. سمعت صوتها من
جديد ينادينى...

- نعم يا حبيبتى..

- جاءت أمى يا حسن.. تنادينى..

- لا يا رقية ابقى معى.. (قلتها وعينى تفيض بالدموع)

- لا تكن كالأطفال يا حسن.. تصبر.. فالدنيا قصيرة مهما طال
يا حبيبى..

- كانت تلك آخر كلمات لها قبل الشهادة تخرج من فمها.. حملتها
بين ذراعى.. رقية لا تذهبى عنى يا حبيبتى.. وأخذت أقبليها من
الندبة.. عسى أن يأخذنى المرض.. لا يا رقية.. سأكون وحدى بعدك..

تركنتها بين يدي حتى الصباح .. دخلت أمي من الباب .. فوجدتني على هذه الحال أحملها بين ذراعي .. قالت : مشيئة الله يا ولدي .. اذهب الآن احضر الكفن ومن تغسلها .. نظرت إلى أمي .. لا أسمع ما تقوله .. ثم دخلت فطيمة وارمة العينين من البكاء .. أدركت حينها الأمر .. وعلمت أن عليّ أن أتحمل هذا .. جفت دموعي .. أين البكاء؟ .. لم لا أبكي؟ .. خرجنا بها إلى المسجد الحسيني .. صلى عليها الناس في الظهيرة .. ومشينا إلى القرافة ومن حولنا تعلق زينة مولود السلطان .. رجعت عند البيت فوجدتهم يعلقون الزينة عنده .. لم أستطع أن أملك نفسي .. أمسكت الزينة أسقطها على الأرض .. أمزقها بيدي .. صرخت فيهم .. أما عادت الدماء في عروقكم تسري .. كفوا عن هذا واذهبوا من هنا حالا .. قلتها صارخا ...

رجعت إلى البيت وجلست إلى مكانها انتظر الموت .. لا يأتي .. طال الانتظار حتى أعلن من المساجد أن المرض قد ذهب عن مصر بعدما حصد من أهلها الكثير ...

حزنت كثيرا لهذا .. ألن أموت الآن .. بقي لي في تلك الدنيا عمر بعدك يا رقية .. فليعني الله أن أقضيه وحدي ...

وجدت باب البيت يطرق .. من بالباب؟ .. إنه شاكِر .. الحمد لله إنه لم يذهب في موجة الموت تلك .. جاء يعزيني وكعاداته عندما يريد أن يشغلني عن حزني .. فيتحدث في السياسة ..

- أما سمعت آخر الأخبار .. قد صار الأمر لعلى بك الكبير ..

- هذا الذي كان أميرا للحج ..

- رجع بعد الذى كان منه من مؤامرة لقتل عبد الرحمن كتحدا

- نعم..

- هذا الرجل ليس سهلا.. ذو مكر ودهاء..

دعك من هذا ألن تعاود فتح الحانوت .. هيا يا رجل لا تكن ضعيفا..

قمت معه يومها وعادت الحياة من جديد.. ومرت الأيام من جديد..

ولكن الذكرى تبقى دائما فى رأسى.. لا تزول أبدا.. أبكى كلما ذكرتها..

وأحيانا أنسى أنها ماتت.. فأدخل الغرف أبحث عنها.. ربما يكون

هذا الفراق حلما.. ولكنى سريعا ما أصدم بالواقع.. فيعاودنى الشجون

من جديد...

قررت أن أجعل لحياتى شكلا آخر.. يشغلنى عن حزننى وشجونى..

أجلس بين الناس فأناقش مشكلاتهم وأساعدهم فى حلها.. بدأ ذلك سريعا

بعدها.. كنت أجلس فى الحانوت فسمعت صوت شجار ذهبت لأنظر

ما الأمر.. وجدت الحاج عبد الواحد القماش يضرب زوجته.. فلما سألت

عن الأمر قالوا لى إنها إحدى زوجاته الأربعة وخرجت تزور أهلها دون

إذنه.. اخترقت الحشد الذى اكتفى بالمشاهدة لأزود عن تلك المسكينة..

وقد كشف الياشمك عن وجهها وسقطت أرضا تصرخ بشدة.. وهو ينهال

عليها ضربا.. لم أرىوما مثل ذلك فى حياتى.. ما الذى يجعل مثل هذا

الشاب يضرب زوجته هكذا أمسكت بيده وقلت :

- اهدأ يا بنى..

- لا مؤاخذه يا شيخ حسن.. هذه زوجتى وأنا حر فى ضربها..

- نعم أنت حر.. لكن فى بيتك ليس بين الناس فى الشارع.. تعال

معى.. وأنت يا بنيتى اذهبى إلى بيتك

- انساق معى إلى الحانوت وانفض الجمع الحاضر هذا..

- اجلس يا ولدى..

- أمرك يا شيخ حسن..

- اسمع يا ولدى.. لا أريد أن أسمع ما الذى حدث.. ولا أريد أن

تحكى لى.. اسمع منى هذا.. وفقط.. أوصى رسول الله بالنساء خيرا..

وذلك لرقتهن وضعفهن.. هل ترضى ما فعلته هذا لأختك؟

- لا يا شيخ..

- إذاً فلا تعدها.. فتجدها فى أختك.. اذهب الآن وترفق بزوجتك

تلك والأخريات..

كانت تلك الكلمات بسيطة.. فقط كنت أريد أن يكف عن تلك

الفضيحة.. ولكن أتت زوجته تلك بعد أيام قليلة تشكرنى على ذلك..

وقالت إنه قد تغير فى معاملتهن.. تعجبت مما تقول فى أول الأمر ولكنى

لاحظت التغير عليه فعلا بعدها.. فلما سألته قال: يا شيخ إن لى خمس

أخوات لو عاملهن أزواجهن مثلما فعلت فسيعود ذلك على المشاكل...

على مثل هذا النحو كنت أبقى ساعات النهار.. فأعود إلى البيت

متعبا.. حتى عرفت بقاضى التجار فى حى الحسين.. فما من متخاضمين

إلا ومرا بى فأحكم بينهما قدر ما أعلم من الأمر فيرضيان حكمى...

فى الآونة الأخيرة عندما كثرت السرقات وقطاع الطريق فى القاهرة

لجأت العامة إلى نوع آخر من الشرطة التى قد فرغت للمماليك.. وبعدت

عن الناس.. فانتشرت السرقات وقطاع الطرق فى كل مكان.. فظهرت

مهنة من نوع جديد مهنة الفتوة نشأت منذ عصر سلاطين المماليك..

فكان لكل حارة من حواري القاهرة فتوة يشكل عصابة من الرجال المنوط بهم حماية الحارة من اللصوص وقطاع الطريق مقابل مبلغ من المال يأخذ من كل بيت فى الحارة.. ومع ضعف الحال فى عهد المماليك أو شيخ البلد وانصرافهم للصراع السلطوى الدائم قويت تلك المهنة وكثر رجالها مما أشعل صراعاً من نوع آخر بين الفتوات وبعضهم.. ولكن هذا الصراع بمفهوم الفتوة.. فلا يعرفون غير الدم والافتتال.. كنت دوما أحاول أن أوقف هذا الصراع أو أحد منه مما جعلنى رجلاً مقبول الحكم بينهم.. وكان هذا لعنة على.. أقحمت نفسى فيما لا أقدر عليه...

* * *

أرسلت شويكار هانم أخت رقية رحمها الله اليوم عبدها الحبشى.. وأبلغنى أنها ستأتى لزيارتنا اليوم.. لم أرها منذ وفاة رقية.. لعل الأمر خير.. ذهبت إلى الحانوت بعد العصر.. فى أول يوم بعد ما كنت قد أغلقتة لأسبوع كامل.. هبت رياح عاتية أفلعت الأشجار وكانت وبالاً على مصر.. أغرقت من المراكب والقوارب كثيرا فى الإسكندرية وتلف فى النيل بعض المراكب.. الحمد لله مرت بسلام.. كان توقيتها غريبا لم نعتد فيه الريح.. ولكن يتغير حال البلاد من كل اتجاه.. حتى فى المناخ... أعرف لماذا ستأتى الهانم اليوم.. إنها تريد طلب فطيمة لابنها مصطفى.. ألمحت لى بذلك من قبل.. لا شىء آخر يجعلها تأتى إلينا.. أعرف عن ابنها هذا أشياء شنيعة.. فأعرف أنه يزور بيوت الفجور.. لمثل هذا الولد لا أعطى ابنتى أبدا.. فطيمة لا تزال صغيرة.. وصية أمها أن أرهاها.. وألا أفرط فيها أبدا إلا لمن يستحقها من الرجال.. أما هذا المدلل.. فلا أبدا...

جاءت راكبة العربة.. ونزل الحورانى أمامها ليفتح الباب وهى ترتدى الفستان على الطراز التركى كعادتها.. رحبت بها وبولدها الذى أتى معها.. كل ما يفعله طيلة الوقت هو أن يلعب فى شاربه الذى قد بالغ فى تهذيبه.. كنت أنظر إليه مشمئزاً.. وحاولت أن أصرف عنه نظرى إلى شىء آخر.. جلست شويكار هانم.. بين يدها كيس من المال صنع من القטיפه.. يبدو عليه أنه قد امتلأ عن آخره.. لم تقدم للأمر

رمت الكيس على المنضدة إلى جوارها.. وقالت بوقاحة هذا الذهب مهر لابنتك فطيمة.. نظرت إليها ثم إلى الكيس.. وقلت لها:

- عن أى مهر تتحدثين؟

- أنا أطلب يد ابنتك فطيمة لابننا مصطفى...

- لا أفهم ما تقصدين (تعمدت أن أتصنع الغباء)

- ألا تريد أن تزوج ابنتك.. أنا خالتها وأولى الناس بها.. هي ابنة

الغالية رقية..

- ولكن فطيمة لا تزال صغيرة..

- ألم تزوج فيروز فى مثل سنها؟

- نعم.. ولكن فطيمة لا تزال ضعيفة.. لا تتحمل مشقة الزواج..

- عن ماذا تتحدث يا شيخ حسن؟.. هل ترفض طلبى؟

- لا أبدا يا هانم.. ولكن ابنتى فطيمة لا تزال صغيرة على ذلك..

يرزق الله ابنك البك بزوجة سالحة تتحمله..

- أنت ترفض طلبى.. إذا هيا يا مصطفى.. لن أدخل هذا البيت

أبدا بعد ذلك..

بالرغم من سوء الموقف فإننى كنت سعيدا جدا بالذى حدث.. لا أريد

لابنتى الشقاء.. ما حالها فى بيت البك.. إنها مشقة لا تتحملها.. ربما

لو تزوجت مثل أختيها وبعدت عنى لكان أهون على من أن أتركها

مع هؤلاء الوحوش.. ذهبت إلى غرفة أمى كانت جالسة على سريرها..

وفطيمة تجلس على أريكة إلى جوار المشربية.. بمجرد ما فتحت الباب

نظرت إلى أمى فى لهفة لمعرفة الأمر.. قالت:

- خيرا يا حسن..

- أبدا يا أم.. جاءت كما توقعت تطلب يد فطيمة لابنها مصطفى..

- وهل قبلت..؟

- لا.. ابنتي لا تزال صغيرة على هذا الأمر.. أليس كذلك يا فطيمة؟

- ليتنى أظل صغيرة يا أبى ولا أتزوج هذا..

كانت تكرهه منذ أن كانت صغيرة.. فقد كان طفلا كريها كما تقول..

كثير البكاء والخدع.. متطلعا إلى ما فى يد غيره.. كثيرا ما كانت تجلس

على حجرى وتحكى لى عن أفاعيله التى كان يرتكبها منذ صغره حتى

كبر.. فبينما كانت رقية جالسة مع أختها فى زيارة لها وكانت معها

فطيمة.. رأت هذا الولد يدخل سكران من الباب.. يتخبط فى كل

شئ حوله.. استأذنت أمه وجريت حتى تدخله لغرفة أخرى فلا نراه

ولا يراه أبوه على هذه الحال.. قاطعت أمى الحديث وقالت :

- إلى متى ستتركها إلى جوارك يا حسن؟

- لو بيدى يا أم أبدا.. لا أدعها لأحد.. أليس كذلك يا صغيرتى؟

- نعم يا أبت.. ليتنى أبقى هنا معك ومع جدتى..

- ألم أقل لكى يا أم؟

- يقدم الله الخير يا ولدى..

- سيرزقك الله خيرا منه يا بنتى.. إن شاء الله..

ضممتها إلى صدرى وقبلت رأسها.. الحمد لله أن فطيمة عاقلة تفهمت

الأمر سريعا.. ليست كهؤلاء البنات يردن الزواج وكفى.. لم يطل أمر

انتظارها طويلا.. فجاء إبراهيم بن عبد الصمد القماش يطلب يدها..

رجل طيب كأبيه رحمه الله.. تركه أبوه صغيرا فربى أخواته حتى

كسبرن.. وزوجهن والتفت إلى حاله ليتزوج.. لم يكن كبيرا فى السن بالرغم من هذا.. كان صغيرا.. منذ صغره يأتى إلى الحانوت يشكو إلى حاله ويحكى لى عن مشكلات يقابلها فأساعده فى حلها.. أوصانى أبوه به منذ كان صغيرا.. هذا ما آمن على ابنتى عنده.. وتكون قريبة منى كفانى من البعد أختاها...

يوم عرفت فطيمة بالأمر فرحت فرحا شديدا.. بالرغم من أنها أبدت الخجل المعهود من البنات.. أما أمى فكانت تؤنبنى دوما أننى لم أعطها لابن خالتها.. أسمع ما تقوله وأسكت.. ولكن فى يوم كان هذا الكلام بمثابة خنجر طعنت به فطيمة.. فالنساء بطبعهن على هذه الحال.. جرت عندما سمعت هذا من جدتها إلى غرفتها وأغلقت الباب.. وقفت عند الباب أستأذن الدخول.. سمحت لى بصوت أغرقه البكاء حزنا.. دخلت الغرفة فوجدتها جالسة إلى الحائط كعادتها عندما تغضب.. جلست إلى جوارها وقلت:

- لا تحزنى يا بنيتى.. إن جدتك لا تقصد أن تغضبك أبدا..
- هى ضاقت بى يا أبى.. لا تريدنى فى البيت..
- أى حديث هذا.. إنها تحبك أيتها الحمقاء.. أنت لا تدركين ذلك..
- تكرر قولها هذا كثيرا.. حتى أنت فى خارج البيت..
- كبرت جدتك يا فطيمة.. لم تعد تدرك ما تقول بحقه.. أنت تعرفين هذا..

- هل تريدنى أن أرحل من البيت أنت أيضا يا أبى؟

- نعم.. طبعاً.. لقد صرت تأكلين كثيراً..

اختلط بكأؤها بالضحك.. كان هذا ما أبرد قلبها قليلاً.. ليتم الله عليها بالخير مع إبراهيم.. ولكن كيف أعد لها ما تحتاجه العروس.. لا أعرف إلى من ألجأ في هذا الأمر.. لا ليس أُمى لم تعد تتحمل هذا قط.. وخالتها في خصام وخصامها فاجر.. فى أثناء تلك الحيرة.. جاء إبراهيم وقال لى: لا تقلق يا عمى ستتولى أخواتى الأمر.. الحمد لله هذا بركة دعاء أمها رحمها الله.. وكانت تلك هى العقبة الثانية.. كانت تتذكر أمها دوماً وتبكي.. وتتذكر أنها لن تحضر يوم زفافها مثل أخواتها من قبل.. ليكون الله معى ويعيننى فى ذلك.. ويوم الفرح جلست فى معزل تبكى..

- لم تبكين يا حبيبتي؟

- كنت أحتاج أُمى كثيراً هذا اليوم..

- ومن قال إنها ليست موجودة.. إنها حولنا الآن.. انظرى..

- أمسكت المرأة لأضعها لترى وجهها..

- أليست تشبهها تلك الصورة؟.. أنت جميلة مثل أمك يا صغيرتى..

وأعرف أنها الآن سعيدة لزواجك.. مثلى تماماً..

- حقاً يا أبى..

- طبعاً.. من هذا الذى لا يكون سعيداً بوجه هذا القمر؟

- لا تبالغ فى الأمر يا أبى.. أُمى كانت أجمل منى كثيراً..

- حقاً.. لا بل أنتِ الأجمل..

- لا بل هى..

كنا نداول ذلك طيلة الفرح.. أسعدها الله وأسعد زوجها.. لم يبق
غيرى وأمى فى المنزل الآن.. أصبحت دارا للمسنين كما كان يقول
حسونة.. ترى أين هو الآن.. لا أعرف عنه شيئاً.. هل كسا الشيب
لحيته مثلى.. ربما.. ولكن هل كسا الوقار رأسه.. يعلم الله.. ما الذى
يذكرنى به الآن.. لا أعرف....

* * *

بينما أجلس فى الحانوت.. إذ بمنادى ينادى فى الناس.. قامت
ثورة فى الإسكندرية.. الإسكندرية تنفض عن كاهلها غابر الممالك..
اقتربت من الرجل أسأله.. فقال قام بهذا الشيخ إبراهيم العطار عالم
الإسكندرية.. سمعت الخبر وأنا قلق على إبراهيم.. أخشى عليه من
مصير أستاذه.. لم يجد الممالك غير أنهم ادعوا بكفر الرجل.. والله
يعلم ما فى صدره.. وهل يكفر شيخ عابدين؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله..
ليتك تعود يا إبراهيم إلى القاهرة فتسلم.. ربما وصله خبر على بك
الكبير.. نعم هذا أكيد.. وأى كيد ومكر لعلى بك هذا.. وكم رجل قتل
حتى يستأثر بالحكم.. صار الحاكم.. هذا يفتح الباب أمام الممالك..
يجعلهم يرجعون إلى سلطانهم القديم.. أنرجع إلى عهد السلاطين
ثانية.. يرحمنا الله...

أرسل على بك فى طلب شيوخ الأزهر.. فخرج منهم عدد يكلم الناس
فى حرمة الخروج على الحاكم حتى لو كان عربيدا.. وذلك درءاً للفتنة..
ويخبرون الناس أن إبراهيم العطار هذا كافر ويريد بديار الإسلام سوءاً..
العامة والبسطاء سريعاً ما يصدقون هذا القول.. يخشون على دينهم..

ربما لا يحسنون الصلاة ولا الصوم.. ولكنهم يخشون على بلادهم.. وعلى دينهم.. وأسرع فى إبلاغ السلطان.. لك الله يا أختى...
هل أخفى الأمر عن أمى وكيف هذا.. لا لن أخبرها.. وإن لم أخبرها فكيف بهؤلاء النسوة اللاتى يزرنها كل حين وآخر.. كيف أمنعهن؟..
الحمد لله لا يعرف العوام كثيرا عن أصل إبراهيم العطار.. لو علموا أنه إبراهيم الزوق لأتوا يحرقون الدار والحانوت.. ويقتلوننى وأمى...
مرت أيام على الخبر وجاء الرشيدى فتوة الحى الحسينى.. يسألنى عن إبراهيم أختى.. قلت له أنه فى البحيرة.. حتى لا يعرف عن الأمر شيئاً فيؤذنى.. ولكنه قال:

- اسمع يا شيخ حسن أنا أعرف أنه الشيخ إبراهيم أخوك.. لا تخف هذا بيننا.. ولكن كنت أسألك حتى أحمى البيت منهم إذا عرفوا..
- لا تخبر أحداً أيها المعلم..
- لا تخف.. هذا سر لن يعرفه أحد أبداً.. تعرف أنا أؤيد هذه الانتفاضة.. عليها تردع المماليك عن أمرهم..
- اخفض صوتك يا معلم.. سيسمعون..
- أستأذنك..
- تفضل.. كما اتفقنا..
- نعم.. دونه رقبتى..

أخبرنى اليوم شاكر أن على بك اجتمع بقاسم بك وإسماعيل بك أبى مدفع ومحمد كتحدا زانور.. وأوصى بجند إلى الإسكندرية.. فقد قام أهل الإسكندرية وأغلقتوا الثغر ولم يقدر عليهم الجند هناك.. بالرغم

من ضرب عدد منهم بالرصاص فمات منهم قرابة المائة رجل.. أى قتل هذا.. أيقتل الرجل على أن يذهب المالك من مصر!!.. ولكن منذ متى ويترك الكلب عظمة من بين فكيه بتلك السهولة.. لم يقدر إبراهيم الأمور حق تقديرها.. يعلم الله ما فى الضمير ويسمع...

فى ليلة جاء إلى البيت على بك الانكشارى.. فقد علا بعد الذى صار من على بك الكبير وأصبح من خاصته.. تلك هى المرة الأولى التى يحضر إلى البيت.. تغير شكله قليلا عن آخر مرة رأيته فيها.. زاد بعض الشيب عليه.. وزاد كبيرا وتعالياً.. بدأ حديثه بالقول اللين.. فقال:

- يا شيخ حسن أريد منك أن تكتب لأخيك لتهدأ ثورته تلك..

- ليس لى أن أكتب له يا بك.. أنا لم أره منذ سنوات طويلة..

- أنت أخوه يا شيخ حسن الكبير وسيسمع لك..

- على بك.. أنا لا أخطب طفلاً.. أخى شيخ وأستاذ لا أكتب له

فيسمع كلامى..

- لا تغضبني منك يا شيخ حسن..

- أنا لا أغضبك.. أنا حقاً لا أعرف ما الأمر فأكتب له..

- بل ستكتب..

- أخرج مدفع الرصاص من جيبيه ووضعه على رأسى.. وجعل آخر

نحو أمى.. وجدت أن من الحكمة ألا أودى بنفسى وأمى المسكينة فى

التهلكة.. وهذا الخطاب لن يضير أحدا.. قلت:

- ماذا تريد أن أكتب له؟

- أكتب له أن يكف عن تلك الثورة.. وأن يعود إلى القاهرة..

ما كان لى غير أن أفعل هذا.. أما أمى فقد كانت تبكى.. كتبت فى الخطاب كلمات مختصرة وحاولت أن أجعل خطى فيه مخالفا عل إبراهيم يدرك هذا.. كتبت «أخى إبراهيم كف عن تلك الثورة فالناس قد خافوا على أنفسهم.. وعد إلى القاهرة.. بيننا من جديد».. أخذ الورقة وسريعا خرج بعيدا.. هذا دوما ما يجنيه أصحاب الحق.. بدأها الحسين رضى الله عنه فقتل حينما قال كلمة الحق.. وسب على المنابر.. لك الله يا إبراهيم.. حفظك الله يا ولدى.. كان هذا ما لى لأفعله.. الدعاء.. صارت الآن أمى تعرف بالأمر.. خافت على ولدها كثيرا.. كانت لا تنام إلا قليلا.. ولا تأكل إلا قليلا.. وترفع يدها كلما ذكرت الأمر وتدعو له.. ثم يعاودها داء النسيان فتنسى.. كانت على هذه الحال.. حتى خشيت عليها.. فاشتريت جارية ترعاها.. كلفنى ذلك كثيرا من المال... يوم اشتريت الجارية كانت حسناء.. ظنت أننى اشتريتها لنفسى.. فدخلت لأنام فى ليلة شرائها.. وجدتها قد أعدت نفسها على الفراش.. لا أعرف لماذا أغضبنى ذلك جدا فنهرتها وأخرجتها من الغرفة.. شعرت حينها أننى قد أخون رقية.. كان الأمر بالنسبة لى على محمل آخر.. كيف لى أن ألس امرأة غيرها.. قد أحلتنى من عهدى الأول.. ولكن لا.. لا أقدر أن أعرف غيرها.. بالرغم من هذا فأنا الآن رجل كبير.. لا أسمح لنفسى بهذا أبدا...

فى الصباح وعدت الجارية الحسناء واسمها حُسنى أننى سأزوجها فى أقرب وقت.. ولكن عليها أن تخدم أمى وترعاها...

وصلت الأخبار من الإسكندرية.. أنهم أخدموا ثورة الناس عندما قتلوا منهم الكثير رميا بالرصاص.. وأمر على بك الكبير بإحضار زعيمهم إلى القاهرة.. ليعدم وتعلق رأسه على باب زويلة وترسل رأسه للسلطان فى إسلامبول.. بالطبع وقع الخبر على كالعصاة.. أياكون المكتوب الذى أرسلته سببا فى ذلك لإبراهيم أذى.. لا أعرف ما الذى حدث غير ما تداوله الناس فيما بينهم.. إنها كانت ثورة جياى كما حدث من قبل فى القاهرة فى عهد سلاطين الممالىك.. ربما ما يقولونه صحىح.. ولكنى لا أظن أبدا.. لىس إبراهيم.. أعرف أذى ربيته صغىرا.. وعلمته.. كيف لا أعرف أذى.. هو عابد طيلة حياته وكذلك كان شىخه رحمه الله... أعرف تلك الأعايب جيدا فعلوها من قبل مع شىخه.. نعم ادعوا عليه كذبا بالكفر وطلقوه من زوجته رغما عنه.. وقتلوه بعدها.. رحمه الله.. لا يا إبراهيم لم أكن أريد أن تكون تلك هى النهاية.. لىتنى كنت جزعا فيها خائر العظم.. وكسا الشىب الرأس واللحية.. وانحنى الظهر من الكبر.. كيف لى أن أقف إلى جوارك.. وكيف يفهم الناس ما تقوله.. حرموا من العلم.. كما حرموا من العىش الكرىم.. تكفىهم لقىمات يقتاتون بها.. لىستىقظوا فى الصباى وهم لا يجدون شىئا يأكلونه.. لىنساقوا فى دوامة الحياة من جدىد.. أشعر أن أسمع أفكاره من بعيد.. وكأن شىئا منى يتحدث.. يجعلنى هذا بىن السخط وبىن الحزن.. أسخط على الممالىك بفعلاهم فلا أغفر لهم.. وأسخط على الناس فلم يؤازروه كما

أراد.. ثم ألتمس لهم الأعذار.. ثم يعود الحزن من جديد يطعن قلبي
بطعنات مسمومة...

ما ذنب تلك المسكينة أمي؟! امرأة عجوز تنتظر الموت.. تعلم أن هذا
بانتظار ابنها.. هل تتحمل هذا؟.. لا أظن أن قلب أم يقدر على هذا في
شدته فما بالك في وهنه.. وكيف أخفى عنها الأمر وسيدعى إليه في
كل حذب وصوب فتأتى الناس ترى الكبش يذبح ويفرحون بالدماء.. أى
بلاء هذا.. يا رب لا تجعل قلب أمي يتمزق.. والله لموتها أهون على من
أن ترى هذا أبدا.. وموتى أهون على من أن يؤذى أخى.. لبيته ما فعل...
لم يطل الوقت برغم دعائى.. لم يطل الوقت حتى جاء خبره وأذيع
على الملأ.. لن تسلم أمي من هذا أبدا.. ستعرف إن لم يكن من المنادى..
فمن الناس بالتأكيد ستأتى لها إحدى النسوة من فاعلات الخير تخبرها
بالأمر.. كيف لى أن أمنع هذا؟.. خطرت فى بالى فكرة.. أجعلها عند
فطيمة فى بيتها حتى ينتهى الأمر.. لم تكن فكرة جيدة.. ولكن القلق
والتوتر دفعنى لهذا دفعا.. لم يكن لدى شىء آخر حينها لأفعله...

الناس عندما سمعوا الأمر.. كأن حلما كان بين أيديهم فقدوه.. ربما
تفقد ولدا فلا تحزن كما تفعل عندما تفقد حلما.. لفقد الحلم حزن آخر
كأن شيئا من أعضاء جسدك قد سقط وضاع بين أقدام الناس تدهسه.. فلا
تستطيع أن ترجعه أبدا إلى جسدك.. وربما يموت المرء مع حلمه.. مئات
السنوات حكم المماليك مصر.. بأسماء مختلفة وفكر واحد.. لا يعرفون
غير القهر والدماء.. جعلوا رائحة الدماء فى كل شىء.. فى كل حى..
فى كل حارة.. فى كل يد طفل يحمل لقمة خبز فى يده يحاول ألا

يأكل منها إلا إذا قسا عليه الجوع.. فربما لا يجد غيرها.. فى كل أب يرى طفله محروما ولا يملك له غير الدعاء.. وأحيانا البكاء.. أما أصحاب الريب.. المرتابون دوما وأبدا.. المفتشون عن الضمائر كلها.. لا تجد فى أعينهم غير الاتهام.. اللوم الحنق.. ربما يجرحونك بشيء من اللمز.. أو بشيء من الشماتة.. أما المفتشون عن الضمير فلا يملكون غير التكفير.. حتى إنهم يشددون فى كل شيء.. أعرف لو طالوا قتلوا مع أخى وقطع دابر الشر كما يزعمون لفعلوا.. ليتهم اكتفوا بذاتهم فعافاهم الله من الظلم.. وأى ظلم، ظلم باسم الدين.. يشقون عن الصدور فتلوح أيضا رائحة الدم...

عندما أنظر إلى حالهم هذه أتذكر.. أتذكر حال كل منهم.. ألم يقتل المماليك ولد هذا.. ألم يسب هذا المملوك ابنه هذا بغير حق.. ألم يسرق هذا.. أين أنت الآن من كلمة الحق.. رضيت بالذل فأذلك الله.. ولكن لا أريد أن أقسو على الناس لو وجدوا خيرا فى حكاهم لبدأ عليهم ذلك.. ألم يقل الإمام على رضى الله عنه عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا.. فمن قتله غير الأذلاء.. لو فهموا ما أراد ما قتلوه أبدا.. ولو عرفوا مقامه ما سبه السفهاء على المنابر.. لعن الله فتنة السلطان.. تعصف بالمفتون.. فتفسد عليه دنياه كما تفسد عليه آخرته.. ربما سيأتى اليوم يفهم فيه الناس هذا فيخافون ويتقون.. ربما لا يكون قريبا.. ولا أظنه قريبا ولكنه سيأتى لا محالة...

فى الصباح أتى جند من جنود على بك الكبير إلى البيت.. أخبرنى أن أخى قد وصل إلى القاهرة وهو الآن مسجون بالقلعة.. ويريد أن يرانى

قبل إعدامه.. حاولت أن أسأله عن حاله حتى انصرف عني.. غريب هذا الأمر.. ما هذه الإنسانية غير المتوقعة.. هل صفح على بك عنه.. أم أتى هذا الجندي على غير علمه.. أظن أنه أتى على غير علمه.. ربما رق لحال إبراهيم.. على كل حال هذا ما أتوق إليه.. حاولت أن ألحق بالجندي.. ولكن صعب على الأمر.. فأخرنى عجزى وقدمى العليلة.. وصلت إلى القلعة مسرعا قدر ما استطعت.. وجدت الجندي يتلفت من حوله.. ثم أدخلنى من باب خلفى من القلعة وقال لى.. لا تكلم أحدا.. فقط امض فى هذا الطريق.. مضيت إلى حيث أشار.. ممر طويل مملوء بالغرف الضيقة.. كيف يصل النور إلى تلك الغرف.. لا أدرى.. أكل تلك السجون مليئة.. وجدت جنديا آخر أخذنى من يدى وفتح أحد الأبواب الحديدية الموصودة.. ثم دفعنى دفعا داخلها.. لم تكن الغرفة صغيرة كانت كبيرة عن تلك الأخرى التى قبلها.. كانت بالكاد يقدر أن يقف فيها رجل.. الأرض مفروشة بالرمال.. يوجد بها شباك صغير يشع منه بعض الضوء فيدخل بعض من الحياة فى تلك القبور.. الرائحة فيها نتنة.. لا يتحملها بشر أبدا.. وقفت فى تلك الغرفة لا أرى شيئا.. ومن بين الظلام بدا رجل جالسا على الأرض يسند رأسه إلى الحائط.. نادى بصوت مريض..

- كيف حالك يا حسن؟

- إبراهيم.. أخى..

وجهه مصفر شعره طويل متناثر ولحيته شعثاء.. لحيته كثة ليست على حالها القديم.. فيها بعض من الشعر الأبيض.. وشعره طويل خالطه

أيضا الشعر الأبيض.. وانسدل على وجهه فلا يعرف أن يرفعه حتى أراه.. مكبل بالسلاسل فى قدميه وفى يديه.. لم تلك السلاسل؟.. كيف سيهرب من كل تلك الحصون.. ومن هذا الباب الفولاذى...

انكسبت عليه دون أن أشعر.. أمسح على رأسه وأرفع الشعر عن وجهه.. ثم أقبله.. فى كل وجهه.. حاول أن يضحك ولكن الألم منعه.. فقال بصوته المجروح:

- كفى هذا يا أخى.. لا أقدر عليه..

- خذنى إلى هذا الضوء الداخلى.. أريد أن أرى وجهك..

- حاولت حمله فلم أقدر.. فساعدته حتى وصل إلى الضوء.. نظر إلى طويلا وأمعنت النظر إلى وجهه.. ما هذا الوجه الذى أنت راجع به يا إبراهيم.. عينان تحوطهما هالة من السواد.. وجراح فى الوجه.. أى وحوش هؤلاء حتى يصنعوا به ذلك؟!

- كبرت يا حسن..

- وأنت كبرت يا ولدى.. كبرت فى كل شىء.. حتى فى مقامك

عندى..

- ايبه.. الحمد لله أننى سمعت منك هذا..

- إياك أن تظن أن المكتوب الذى أرسلت كان منى..

- لم يصلنى شىء.. انفض الناس قبل أن يصلنى.. (قالها ساخرا..)

- جئت لك ببعض الطعام.. تتقوت به..

- وما فائدة الطعام.. كلها ساعات وألقى وجهه الله الكريم..

- لا تقطع قلبى أكثر من ذلك يا إبراهيم (وترقرقت الدمعات منى)

- لا يا حسن.. أنا لا أريدك أن تبكى.. أين رباطة جأشك يا رجل..
- اسمع لقد عشت لشيء وسأموت من أجله.. هذا ما علمنى إياه أستاذى..
- إذا سنأكل معاً.. كما كنت صغيراً.. تذكر هذا؟
- بل لا أذكر غير هذا.. الطفولة تهون على الحياة كلها.. تذكر يوم العربية..
- التى كادت تدهسك..
- نعم.. يوم أخذتنى بعيداً عنها.. ضمنى يا حسن..
- كم أشتاق إليك يا أختى..
- وأنا..
- كيف سمحوا لى بتلك الزيارة؟
- آه.. أبدا أتى بالليل قاسم بك.. فوجدنى أصلى.. انتظر حتى انتهيت.. وقال لى ألسنت كافراً.. فقلت له: أ يوجد كافر يقوم الليل..
- أليس الأمر مضحكاً؟! قال: اسمع يا ولدى أعرف أن ما يدعونه باطل.. ولكن ليس عندى شيء أفعله فأطلب منى شيئاً.. طلبت أن يسمح لك بزيارتى.. وكان هذا..
- غريب هذا الأمر..
- لا هكذا تسرى الأمور دوماً.. أنا مقتول لا محالة..
- أين أولادك الآن؟
- أولادى هيه.. سفهاء العامة أحرقوا البيت.. فهربت بهم الجارية ولا أعرف عنهم شيئاً..
- كيف هذا.. سأبحث عنهم فى كل مكان حتى أجدهم..

- لا عليك.. لن تجدهم هربت بهم إلى البحر لا أعرف وجهتها..
هكذا أمرتها يوما إذا حدث سوء..
- هل لك أن توصيني بشيء؟
- لا.. لم يعد لدى في الحياة غير بعض أنفاس.. لا تتعب نفسك
يا حسن.. سأذهب منها كما جئتها بلا شيء.. هكذا مات أستاذي أتذكر؟!
- رحمه الله..
- نعم رحمه الله.. هذا ما أوصيك به.. الدعاء بالرحمة.. كيف
حال أمي؟
- أمك في البيت أحاول أن أخفي عنها الأمر.. تدعو لك دائما..
- الحمد لله.. وبناتك.. ورقية.. كيف حالهن؟
- رقية رحمها الله منذ أعوام.. وبناتي تزوجن جميعا.. آخرهن
فطيمة الصغيرة..
- تعبت بعد رقية يا حسن؟!
- وأى تعب يا أخی.. أى تعب؟!
- لا أريد أن يبكينى أحد.. هل ترانى على خير؟
- نعم إن شاء الله..
- إذا.. فلا بكاء.. أخبر أمي بهذا.. بل أخيرا سأرتاح..
- هل تعبت أنت أيضا؟
- حياة طويلة مرت على كل حال.. فلقد عشنا فرحا وحزنا فراقا
ولقاء.. وأدعو الله أن يتمها بخير.. وأحسب نفسي عنده شهيدا للحق..
- اللهم آمين.. إن شاء الله.. إن شاء الله..

- فتح الجندى الباب وقال إن على بك آت إلى هنا.. وعلى أن أسرع فى الخروج.. خرجت مسرعا إلى الباب الخلفى للقلعة حيث جئت منه.. تلك هى المرة الأولى التى أدخل فيها تلك القلعة.. ما أضخمها.. وما أعظم بنيانها.. بمجرد ما خرجت منها.. عاودنى البؤس من جديد.. هذه هى المرة الأخيرة التى أرى إبراهيم فيها.. غدا سيحشد الناس فى ساحة القلعة.. ليشهدوا قطع رأس الكافر.. الخارج على السلطان وحكمه.. هذا المسكين إبراهيم الزوق.. النجار الصغير الذى كان يلعب فى الشارع.. فيسقط على الأرض من ضعفه.. هذا الأشعث الأغبر الذى بين تلك الأسوار.. ليتنى أصرخ فى الناس وأقول لهم أفيقوا أيها الناس من غفوتكم.. وأفعل مثله.. ولكن آنى ذلك بعد هذا الشيب والكبر.. كيف أحارب هذا الزمان فأعود من جديد؟...

رجعت إلى البيت حزينا بائسا.. يأخذنى البكاء تارة.. فأتذكر كلام إبراهيم تارة أخرى.. فأمسك الدمع.. يا لأمى المسكينة.. لم تنقطع عن البكاء منذ يوم أتى على بك الانكشارى إلى البيت.. كيف لا يدرك هؤلاء هذا الحد الضعيف بين الحياة والموت.. أنفاس فقط وستنتهى.. حتما ستنتهى.. فلا يبقى لهم غير بؤسهم وشقائهم فى الآخرة.. لو علموا لأراحوا واستراحوا.. ولو سمعوا ربما تكون لهم موعظة فيمن كان قبلهم.. ولكن هيهات قست القلوب...

لم أنم ليلتها.. لم أفكر حتى أن أفعل.. أنتظر الصباح.. أذهب لأرى أخى تقطع رأسه على الملاء.. أية قسوة تلك التى جعلت فى قلوب هؤلاء.. ألا يخشون الله أبدا.. وجاء الصباح.. ونادى المنادى

واحتشد الناس عند القلعة.. جاءوا بإبراهيم مكبلا.. ثم جعلوا يديه إلى ظهره.. وأجثوه حتى يمكنوا للرأس.. كسر صوت العامة وكل الجمع صراخ أمى.. ولدى.. من أخبرها لا أعرف.. يلحقها إبراهيم زوج ابنتى فطيمة.. يحاول أن يمنعها.. ولكن أى قوة تلك تمنع امرأة من رؤية ابنها للمرة الأخيرة.. سمع إبراهيم الصوت ونظر يبحث عنها.. شقت الصفوف وجمع الناس.. ووصلت إلى حيث أوقفها الجند.. ابتسم إبراهيم.. وهى تنظر إليه باكية.. يلجمها البكاء فلا تنطق.. ثم قالت بصوت عالٍ وكأنه حمل إلى السماء.. «ولدى».. نظر إليها إبراهيم بابتسام المطمئن وقال: لا تخافى على يا أم.. وضع السيف رأسه.. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. ثم انقضى كل شىء...

لم تتحمل أمى مشهد هذه الدماء.. جرت على السيف تمسك بمعصمه.. وتقول: قتلت ولدى.. قطعك الله قطعك الله.. ثم سقطت على الأرض.. لم تستطع أن تتحمل ماتت رحمها الله من فورها.. لا أعرف أين ذهب البكاء.. سيعلق الرأس على باب زويلة ثلاثة أيام.. ثم يرسلونه إلى إسلامبول.. ذهبى أدفن أمى وجسد أخى القتيلى.. وخرج الناس من حولى حشودا.. لا لم يكونوا مصدقين المماليك.. زاد هذا من قدرى وقدر إبراهيم أخى عندهم.. حاول جند المماليك أن يفرقوا الجمع خوفا من القلاقل.. ولكن الناس أبوا إلا أن يمشوا فى جنازة أخى.. التفوا من شوارع أخرى ليعاودوا السير فى الجنازة من جديد.. كفى أن الرأس لن يدفن.. لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.. أى صبر كان عند السيدة أسماء رضى الله عنها.. لا لم يكن إبراهيم الأول..

ولم يكون الأخير بدأها الحسين رضى الله عنه .. وها هي الرأس يدفن
فى المقام هذا.. أى فجر هذا.. ألا يوجد لنبى مقام فى أمته من كرامة..
يموت الشرفاء ليحيا السفهاء...

رجعت من الجنّازة لأجلس عند باب زويلة عند الرأس.. قد رفع
بسلاسل وعلق على الباب وكأنه زينة يتباهون به.. جلست على الأرض
إلى جوار الباب أقرأ من القرآن.. أى برد هذا على قلبى.. أهكذا موت
السعداء.. كان لا يزال يرسم على وجهه الابتسام.. الحمد لله أنه رأى
أمى قبل أن يرتحلا.. أو ربما أبى إلا أن يأخذها معه.. سبحان الله..
سبحان الله...

بينما أنا جالس إلى الباب مر الناس كثيرا منه ينظرون إلى الرأس
فمنهم من يقول لا حول ولا قوة إلا بالله.. ومنهم من يرسم الصليب..
ومنهم من يقول إنه المسيح.. ومنهم من يقول السلام عليك يا حسين..
ومن يقف إلى جوارى باكيا ثم ينظر إلى وينصرف دون حديث.. وكان
البكاء قد أعجزه عن الكلام.. أو ربما يعتذر لأنه لم ينصره.. مات إبراهيم
ولكن سيبقى ذكره كما بقيت ذكرى أستاذه رحمهما الله...

بقيت على هذه الحال ثلاثة أيام.. جاء إبراهيم زوج فطيمة أكثر من
مرة يرجونى أن أقوم معه.. ولكن كيف لى أن أترك رأس أخى؟.. أما
كفى بعدا.. الجلوس إلى جواره سكن.. فى الليل يشعل الحرس النار..
فتبدو لى الرأس وكأنه يحدثنى.. يبتسم ويقول لا تخف علىّ يا حسن
أنا وأمك فى الجنة.. ومرة أخرى يقول.. الحمد لله ارتاحت نفسى...

جعلنى الحزن أفكر فى أشياء غريبة.. تساءلت كيف كان رأس الحسين يوم أن مات.. كان شيخى يقول إن الرأس كان يقرأ القرآن.. فلما خشى يزيد من ذلك أمر بدفنها. بينما أنا فى غمرة تلك الفكرة سمعت صوت القرآن وخيل لى أنه رأس إبراهيم.. ثم نظرت حولى فوجدت أحد الحراس يقرأ.. بدا الخرف يأخذ برأسى بعيدا.. غلبنى النوم ونمت مكانى.. لم يوقظنى غير ضوء الشمس.. وصوت الحرس يرفعون الرأس ليرسلوه إلى إسلامبول.. سمعت رجلا يقول لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنه مملوك ويبدو عليه أنه بك.. قمت مسرعا والتجأت إليه أبكى وأقول: بالله عليك دعنى أدفن الرأس مع الجسد.. بالله عليك.. وألححت فى طلبى هذا.. ولكنه نظر إلى نظرة شفقة وقال ليس بيدى شيء يا شيخ.. ليس بيدى شيء...
كان هذا بداية المرض عندى.. أى إنسان يحتمل هذا العذاب.. وأى جسد.. دب المرض فى عضدى.. وقلت حركتى.. وشاخت قدماى على الجيئة والذهاب.. وصار بيت الزوق فارغا إلا منى والجارية حسنى.. وبدأ عذاب الوحدة يقتلنى....

* * *

فى لىالى اللاحقة فرغت الحىاة من كل شىء.. غير بعض من الذكر..
 آثرت الاعتكاف فى البيت.. أشعر أننى ما عدت أستطىع أن أمكث فى
 الحانوت وحدى.. لا أحد معى فى بيت الزوق غير حسنى الجارىة..
 تخدمنى.. أشعر بالذنب نحو تلك البنىة.. شعرت أنها إحدى بناتى..
 كنت قد وعدتها بالزواج من قبل.. تذكرنى بذلك بىن الحىن والحىن..
 أو حتى تلمح إلیه من بعىد.. فكرت كثرىا أن أعتقها.. ولكن من یخدمنى
 فى مثل هذه السن الكبىرة.. لا أود الإثقال على فطىمة.. كفى أن زوجها
 یرعى الحانوت فى غىبتى تلك.. أفكر فى أن أءع هذا الحانوت..
 زهدت الدنىا فلم أعد أطلب منها شىئاً...

قرر شاكر وبعض من أصحاب الحوانىت أن یأتوا لزیارتى بىن
 الحىن والحىن.. خاصة بعدما وثب على بك الكبىر على حكم مصر
 واستفرد به....

وأوقف الدعاء للسلطان العثمانى.. بعدما أوقفوا الباشا وأنزلوه من
 القلعة.. لم ینته فىها من القتل والنفى.. نفى مئات من الممالىك فى
 أركان كثرىة من مصر.. كان هذا مما استشرفه إبراهىم عندما قام بثورته
 ربما.. نعم قال لى إنه یرى الممالىك راجعة إلى عهد السلطان لا رىب..
 كان محقا فى ذلك.. لقد رأى ببصىرة العلم ما لا نراه...

وفى لىلة ممطرة وجدت الباب یطرق بشدة فى اللىل.. ترى من
 بالباب فى تلك الساعة المتأخرة.. قمت لفتح الباب.. وجدت رجلا بدا

عليه العجز.. مهلهل الثياب يبدو عليه المرض.. رفعت شعلة الضوء حتى أرى وجهه.. من هذا؟.. إنه حسونة..

- أدخلنى يا حسن..

- حسونة.. تفضل.. كيف حالك يا حسونة؟.. أين كنت كل هذا؟

- ذهبت إلى بيت أبي وجدته مغلقا وصد بقل قديم.. لم أستطع فتحه..

- نعم.. لم يذهب إلى هناك أحد منذ ماتت أمك رحمها الله..

بدأ يجهش بالبكاء.. عندما ذكرت له موت أمه.. أصعدته إلى الغرفة

بدل ملابس.. وهدأ قليلا.. وجلس على السرير حتى يرتاح من سفره..

لم أكن أريد أن أثقل عليه.. تركته يرتاح وينام وفي اليوم التالى..

لم يستيقظ إلا متأخرا جدا.. أعدت حسنى لنا الفطور.. وبدأ يحكى

قصته العجيبة.. منذ أن ذهب مع تلك المرأة إلى المنصورة..

- ألا تخبرنى أين كنت كل هذا الوقت؟

- لقد ضيعت نفسى يا حسن.. ضيعت عمرى ولم أفق إلا متأخرا..

بعدها ضيعت كل شىء.. حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا نعيمة..

- قلت لك من قبل تلك المرأة لا تصلح أن تكون زوجة لك أبدا..

- ومتى كنت أسمع؟.. كفى أننى عصيت أبى وكنت سببا فى

موته كمدا..

- لا عليك الآن.. رحمه الله.. أخبرنى عن قصتك..

- وصلت إلى المنصورة.. مدينة جميلة.. لا أعرف ما سر السحر الذى

كانت تملكه تلك المرأة على نفسى.. كانت لضحكتها الرقيقة الرنانة سحر

من نوع خاص.. حقا كنت أشعر أنني منجذب لها بأية حال.. بالرغم من سوء سريرتها فإنها كانت بالنسبة لى المرأة كما تجب أن تكون.. عملت فى بحر النيل أصطاد السمك.. كنت أغيب عنها أياما.. ثم أعود لأعطيها ما جنيته من المال.. فتأتى بالخمير والحشيش.. وتجلس واضعة قدميها أمامى.. هذا ما كان يأخذنى إلى عالم آخر من المجون والجنون.. عرفت عن النساء كثيرا.. لكن الأمر بالنسبة لتلك كان مخالفا.. كثيرا ما كنت أسمع الناس يهمسون لبعضهم ويشيرون إلى.. لم أكن أعرف مقصدهم فى أول الأمر.. كنت غيبا.. سرعان ما تفهمت الأمر.. فى اليوم الذى عدت فيه مبكرا عن موعدى.. وجدت البيت قد جعل وكرا.. امتلأت الغرف بالنساء والرجال.. وعلت منه الضحكات.. عندما دخلت لم يقم أحد من مقامه.. بحثت عن تلك الفاجرة.. ووجدتها تجلس وحولها الدخان يتصاعد من النرجيلة.. حاولت أن أردعها عن ذلك.. هددتني بأن تأخذ المال منى وتدخلنى السجن بتهمة ذلك الوكر.. هالنى الأمر.. ليتنى قبلت بهذا السجن ولا أبقى بين فكى تلك الأفعى.. كنت لا أفيق من السكر حتى لا أعود فأرى حالى من جديد.. وظللت على هذه الحال.. حتى قررت فى يوم الهروب.. بعيدا عنها.. ركبت فى النهر حتى وصلت إلى القاهرة.. نزلت فى صحراء لا أعرف أين أذهب.. حتى قابلت بعض البدو.. مكثت معهم مدة من الزمن.. حتى هجم قطاع الطريق عليهم.. فهربت حتى وصلت إلى القاهرة.. ولم أجد غيرك ألجأ إليه..

- اسمع يا حسونة.. ابدأ حياتك من جديد.. أعلن توبتك إلى الله ولا ترجع أبدا إلى ما كنت فيه.. لم يبق من العمر بقدر ما ذهب منه..

– هذا ما نويته إن شاء الله.. و لن أجد غيرك يساعدنى فى الأمر..
وأنا الآن مريض أمرضى الخمر فى كبدى..
كان هذا اليوم بدء حياة جديدة لحسونة.. هو أولى الناس بالحنوت
الآن.. أما حسنى الجارية.. لم لا أصونها وأصونه وأزوجهأ له.. كان هذا
ما فعلته.. رجع إلى بيت أبيه .. وإلى حانوت جده.. وأعتقت حسنى
وتزوجها برضا منها.. أشعر وكأننى أسلم تلك الدنيا...

* * *

ما هذا الصوت الذى فى الخارج.. أسمع صوت امرأة تستنجد بى من
خلف الباب.. إنها مارتا زوجة يوسف الحلاق..
– أهلا بك يا بنيتى.. ما الأمر؟
– يوسف يا شيخ حسن.. يلحق بى ليضربنى..
– ادخلى وأدخلى أولادك..
دخلت البيت مذعورة.. ولم تلبث إلا قليلا ووجدت الباب يطرق
بشدة.. فتحت الباب فإذا به يوسف هذا.. رجل مفتول العضلات كبير
الشارب ثقيل الشعر.. فى عينه بعض الحور.. يكبرها بسنوات طويلة..
حاولت أن أهدئه قليلا ولكن لا فائدة.. اشتد غضبى عليه وقد اجتمع
الناس ودخلت بعض النساء يحمينها.. خجل من الجمع وانصرف..
ودخلت إلى مارتا أستوضح الأمر منها...
– ما الأمر يا بنيتى؟
– يضربنى يا شيخ كل يوم وأولادى.. ويبخل علينا فى كل شىء..
لم أعد أتحملة.. لا أريد أن أعود أبدا.. سأعود إلى ديارنا فى الصعيد..
لا تتركه يرجع يا شيخ.. أستحلفك بالله..

- اهدئى يا بنتى.. ويفعل الله الخير..
- تعلم يا شيخ أن عندنا لا تقبل الكنيسة بالطلاق أبدا.. ورجوت
الأب سمعان أكثر من مرة.. ليعتقنى من هذا الجحيم.. فأبى..
- فى الغد ستصير الأمور بالخير.. ابقى هنا مع أولادك.. وسأرسل
فى طلب حسنى لتكون معك الليلة.. وسأبيت مع حسونة..
فى الغد انطلقت إلى الدير.. وقابلت الأب سمعان.. قد طعن فى السن
فقد جاوز عمره مائة عام.. رحب بتلك الزيارة بشدة.. وتحدثنا عن بعض
الذكريات.. وعن أبى رحمه الله.. وجدت الأمر ممهدا لأشرح له وضع
مارتا وأحكى له الأمر.. فرفض ذلك.. وقال: سأحدث يوسف فى الأمر
وأؤدبه.. و لكنى قلت له إنه فعل من قبل ولم يستجب.. طلبت منه
أن يكون هذا رجاء لى عنده.. وحاولت إقناعه باستحالة عيشها معه..
لم يجب فى حينها.. لكنه وعد ببحث الأمر...
ظلت مارتا ماكنة فى البيت تخشى حتى من الخروج فيضربها.. ثم
وجدت الأب سمعان.. وقد جاء إلى وقال إنه عرض على يوسف الأمر
فقبله.. ووافق الأثاقفة على أمر الطلاق هذا...
لم أر سعادة قط كما رأيت فى وجه تلك المرأة عندما أخبرتها بالأمر..
نزلت على يدى تقبلها.. وتحمد الله على ذلك.. ثم ارتحلت إلى الصعيد
مع أولادها...

* * *

فى ليلة وجدت الناس قد هرعوا إلى الشوارع وكأن شيئا عضلاً قد
حدث.. خرجت من البيت أسأل الناس.. فقالوا إن حريقاً هائلاً قد وقع

فى الأزبكية.. حرق الكثير من المنازل العظام.. ولكن الحمد لله سلم أهل تلك البيوت.. ثم ما لبثوا أن عمروها.. والتجأ عندى منهم الشيخ خيرى العصار وأهله.. حتى أعاد بناء البيت...

فى ذلك الحين.. كنت أسمع بخبر على بك الكبير مع تلميذه محمد بك أبو الذهب.. كان عندى شغف بالسسمع إلى تلك الأخبار.. أشعر وأنسى أجد ثأر أذى أمام عينى يأخذ من على بك.. بالرغم من أن هذا الرجل أصلح فى البلاد فإنه كان عندى دوما مذموما.. وكل ما يحدث من صراع السلطان ليس بالجديد عند أهل مصر.. فقد عهدوه من قبل فى عصر سلاطين المماليك.. وعندما عرفت بقتله.. لم يكن عندى شىء من شماتة.. ولكن شعرت بأن أذى إبراهيم كان على حق.. هذا ما جعلنى أثق بأن اليوم الذى ستنتفهم فيه الناس مقصده سيأتى لا محالة...

عندما انقلب محمد بك أبو الذهب على أستاذه.. كان هذا سوءاً على على بك الانكشارى.. الذى سلب كل ما يملك.. ونفى إلى الفيوم.. فى هذا اليوم رأيت للمرة الأخيرة.. ورأيت شويكار هانم.. فلقد جاءوا عندى إلى البيت لاجئين إلى.. ما أعجب دول الأيام.. لا تزال صورته وهو يهددنى ويفزع أذى.. ويوم أتت شويكار هانم تطلب يد فطيمة.. أذى عبرة بعد الذى صار لهم يعتدون بها.. بعد رحيلهم.. سمعت أن البك والهانم رجعا إلى إسلامبول.. وعاشا بقية حياتهما فى بيت بسيط فيها.. ما أعجب الأيام...

* * *

بعد ما استقر الأمر لمحمد بك أبو الذهب.. شرع فى بناء مسجده.. وما إن انتهى من بنيته.. حتى خرج إلى ديار الشام يفتحها.. فتحت

عليه تلك الديار وكان مريضاً جداً.. وما إن استقر له الأمر فيها حتى مات.. فتنازع صحبته في الأمر ثم أجمعوا أمرهم أن يرحلوا إلى مصر فعادوا وبنوا له قبرا ليلاً.. وفي الصباح مشى في جنازته العلماء والأعيان.. وكانت تلك هي نهاية من بغى على أستاذه...

بعد وفاة محمد بك.. نشب في السوق شجار عظيم بين الفتوات.. فمنهم من كان يحب محمد بك ومنهم من قال إنه كان خائناً لأستاذه.. أية بلاهة لهؤلاء الرجال! تطور الأمر إلى معركة كبيرة.. وصلت إلى السلاح الأبيض.. جاء إلى شاكراً في محاولة علني أنهي هذا الصراع إلى خير فالفتوات يعرفونني ويقدرون مقامي.. لكن إن نشبت فتنة يا ولدي.. فلا أحد يسمع.. وقفت في قلب هذا الصراع الدامي.. أحدثهم.. أيها الناس أفيقوا.. أيا ما كان أمر الرجل فقد مات.. أيها الناس لا تنسوا الله.. دماؤكم عليكم حرام.. ولكن لم يهدأ الأمر قط.. ويموت أبرياء بسبب بعض من سفاهة الفتوات.. ضقت من كل هذا.. وخطر في بالي أن أغادر ديار مصر.. لقد ضقت من العيش فيها.. كرهت السباب ومللت منه.. وشكل الدم بدا في شوارع القاهرة وسوق الغورية امتلاً بالجنث.. لم يعد الأمر على ما كان عليه من اختلاف في الرأي.. بل بدا عنف وحرب بلا سبب.. في الليل قررت أن أرحل من هذا البلد إلى الأبد.. ربما أذهب عند أبناء عمومتى في الشام.. عند فيروز ابنتي.. كم أشتاق إليها.. أعددت نفسي لذلك.. في الصباح عاد الصراع من جديد.. الأصوات تعلو والصراخ لا يهدأ.. أي يوم هذا امتلاً بالدم.. بدا صراع للدم فقط.. فلا عدت أعرف من يقتل من؟.. ولم؟..

خرجت من البيت.. قابلنى إبراهيم محاولا أن يمنعنى من الرحيل..
رفضت الأمر.. لا.. لن أعود لتلك البلاد كفى ما لاقيت فيها من الدماء
والأحزان.. كان هناك شيء آخر يدفعنى للخروج لا أعرفه.. امتلاء
قلبى بالحزن.. عندما رأيت طفلة صغيرة جلست خلف حجر تبكى..
أمسكت بها وجعلت أمسح على رأسها حتى هدأت ثم جعلت أبحث
عن أمها.. فوجدتها ملقاة على الأرض والدم يخرج من فمها.. اللعنة
عليكم.. أين الممالك يكفونكم عن تلك الدماء؟.. أين أولى الأمر؟..
لا حياة لمن تنادى.. لك الله أيتها المسكينة.. قررت أن أخذها معى...
مشيت بين الرمم حتى وصلت إلى باب الفتوح.. وأخذت أنظر إلى
بلاد غريبة.. لم تعد التى أعرفها.. رائحة الدم فى كل مكان.. وبالرغم
من هذا أخذت الذكريات تجوب رأسى.. عندما كنت صغيرا.. مرت أمام
عينى أحداث الحياة كلها التى عشتها.. فرحا وحزنا بكاء وضحكا..
حبا وكرها.. كل شيء.. وتذكرت وصية أبى يوم قال لا تخرج.. لا تترك
بلادا عشت فيها.. ولكن تلك البلاد بدت غريبة عنى كما صرت غريبا
عنها.. وزعت نظراتى بين النواحي.. صدرى يضيق.. أتنفس بصعوبة..
أسمع دقات قلبى صوتها يرتفع حتى صارت فى أذنى كدقات طبول
الحرب.. نظرت إلى تلك المسكينة التى فى يدي.. ترى أى مصير
تلاقيه.. شعرت أنها النهاية.. ثم رأيت أبى وقد ارتدى لباس الحج..
تذكرت عندما كنت صغيرا فياخذنى من يدي حتى نذهب لمولد السيدة
زينب.. قال:

- تعال يا حسن..

- أبى ..

- هيا ..

أوماً إلى وأمسكت يده .. ثم انتهى كل شىء .. انتهى .. كان ذلك فى ١١٩٠ من الهجرة النبوية الشريفة .. مت عن عمر اثنين وسبعين عاماً .. وانتهى بى الأمر إلى هذا المقام الذى رأيت ...

* * *

كانت تلك حياتى يا ولدى وكانت تلك سيرتى وهى الآن أمانتك .. فاحكم أنت فيها .. (سكت قليلاً متأملاً أو حاول أن يسمع شيئاً قادمًا من بعيد ثم قال: هذا صوت الكروان .. جاء وقت الرحيل .. أستودعك الله .. لا تنس الأمانة .. أخبر الناس عنى إن الحياة لا تستحق كل هذا الاقتتال .. فمهما طالنت هى إلى زوال .. أخبرهم أن صاحب المقام هذا رجل أظلمته الهموم .. فكان صبره عليها باب الخروج .. خرج من باب الغرفة واختفى .. فتحت الباب أبحت عنه .. فلا أجد .. على أية حال .. ها قد عرفت قصته .. رحمه الله .. انتهت قصة الزوق الذى لم يخرج من مصر بل مات على أبوابها كمداً .. وربما كان موته هذا سر وقف هذا الصراع .. وحفظ الناس له ذلك .. فجعلوا منه ولياً .. أو ربما حفظوا لأخيه إبراهيم الإعجاب فكان هذا بينهم بمقام الولى .. انتهى الأمر على كل حال .. أما أنا فسأعود إلى النوم .. لأعود إلى ألم حياتى من جديد ...

تمت